
www.kotobarabia.com
شعر
ظل شجرة
في
المقابر
www.kotobarabia.com
محمود خير اللّه

ظل شجرة في المقابر

شعر

محمود خير اللّه

فهرس

أجدادنا

الجماجم التي لأهلنا وذوينـا، التـي لـلذين طأطـأوا رؤوسهم أمام كل ريح، وللحالمين بجنـة وعـدل و"أسـنان مشط".. وللذين ما لمسوا " زهرة" بغير جرح ودفعوا الأيـام أمامهم فارتدت إليه دائما " ألـف خلـف"، وللـذين غيـروا مساكنهم مرات باحثين عن مفتاح ومخبـأ، الجمـاجم التـي لأناس مرحين جدا وعاطلين عن العمل، وللذين حين تشمهم تفهم أنهم يعملون لأنفسهم ولغيرهم أيضا، وللذين انكسـرت قلوبهم وضلوعهم بين الموت والحياة.

الجماجم التي لأجدادنا يطحنها المدمنون عادة قبـل أن يدخلوا في نصف غيبوبة.. نصف غيبوبة لرأس مدمن.

"الختم"

علّقتْ دمعة صغيرة

وأغلقت الباب،

كانت طوال الليل تحلم،

أنها ستساق في الصباح عظاما

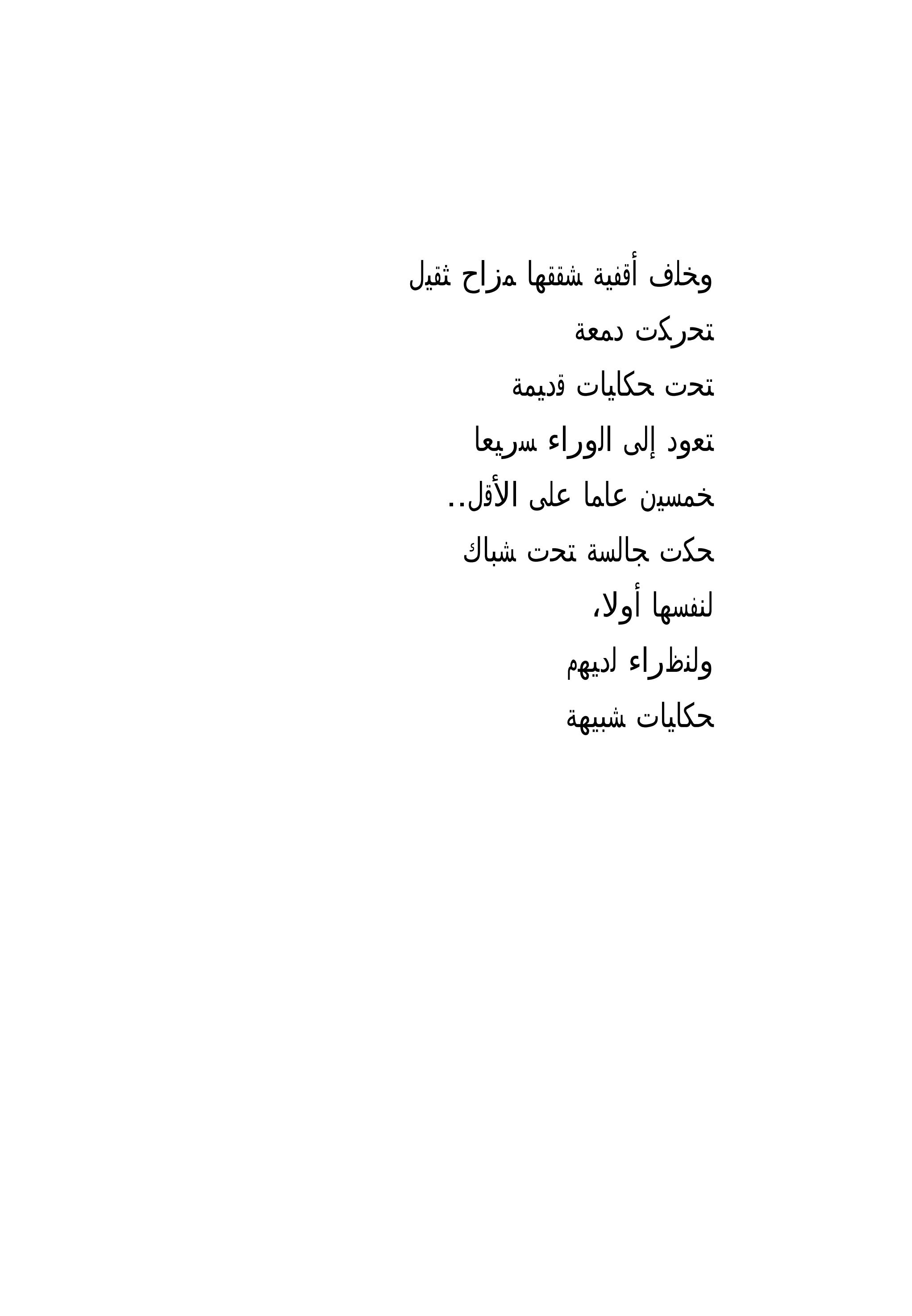
بعد أن تعود من رحلة شهرية

لمكتب البريد..

في الطابور الطويل

عبر أحذية ممزقة

وجوارب مثقوبة الجنبين



وخاف أقفية شققها مزاح ثقيل

تحركت دمعة

تحت حكايات قديمة

تعود إلى الوراء سريعا

خمسين عاما على الأقل..

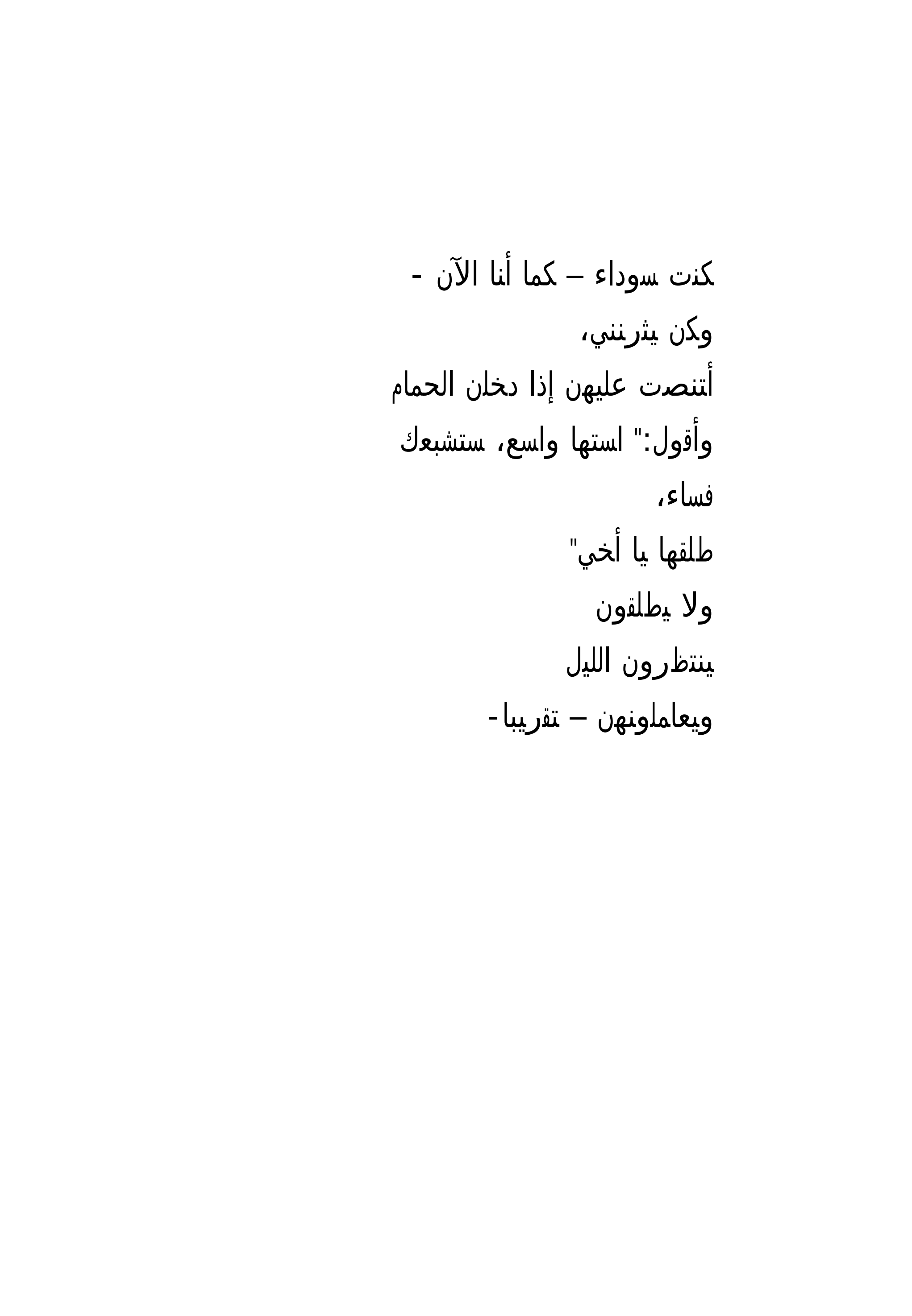
حكت جالسة تحت شباك

لنفسها أولا،

ولنظراء لديهم

حكايات شبيهة

عن الزوجات الصغيرات لإخوتها،
عن شلال بكاء غرقن فيه
حينما تزوجن إخوتها:
"كن بيضاوات
وإذ يرتدين الساتان
يشعلن إخوتي
ويحبلن،
لم يكن حقدا عليهن
صدقوني،



كنت سوداء – كما أنا الآن -

وكن يثرنني،

أتنصت عليهن إذا دخلن الحمام

وأقول:" استها واسع، ستشبعك

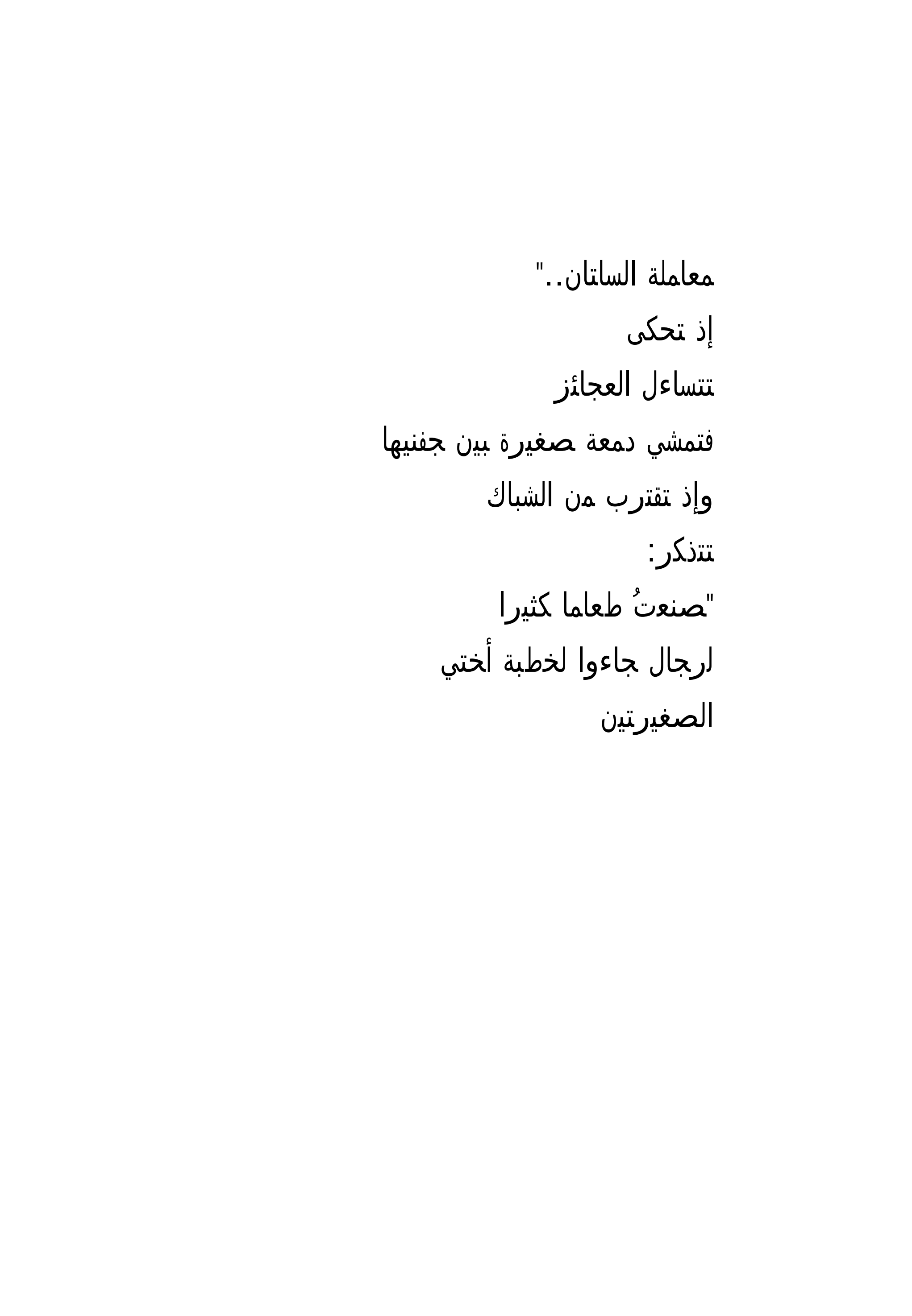
فساء،

طلقها يا أخي"

ولا يطلقون

ينتظرون الليل

ويعاملونهن – تقريبا-



معاملة الساتان.."

إذ تحكى

تتساءل العجائز

فتمشي دمعة صغيرة بين جفنيها

وإذ تقترب من الشباك

تتذكر:

"صنعتُ طعاما كثيرا

لرجال جاءوا لخطبة أختي

الصغيرتين

وجهزت مع إخوتي الذكور

ليالي عرسهم،

كنت أدق رؤوس زوجاتهم في خيالي

بأيدي "الهون" المضافة إلى

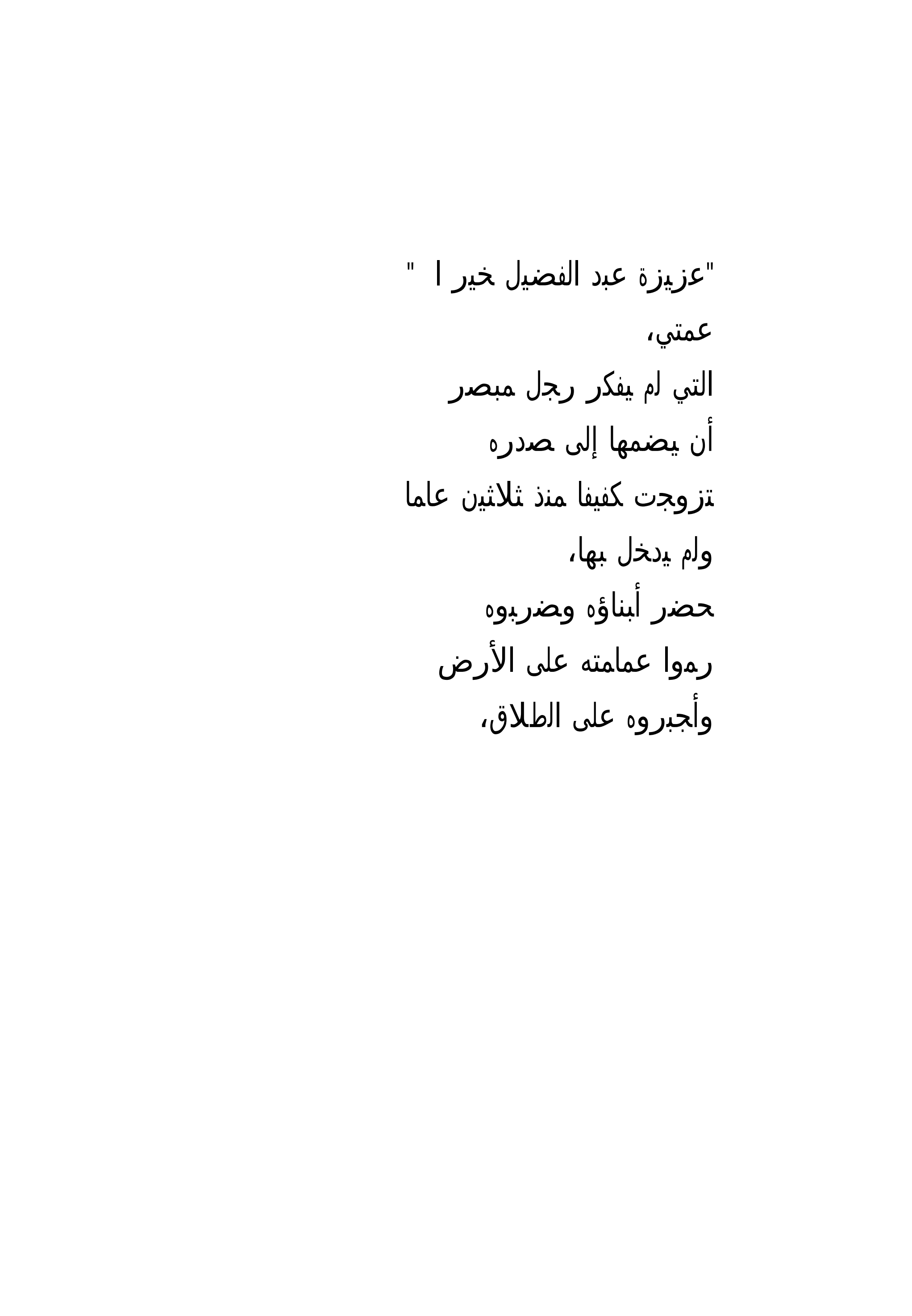
"الجهاز"

كن بطلات وتحملنني.."

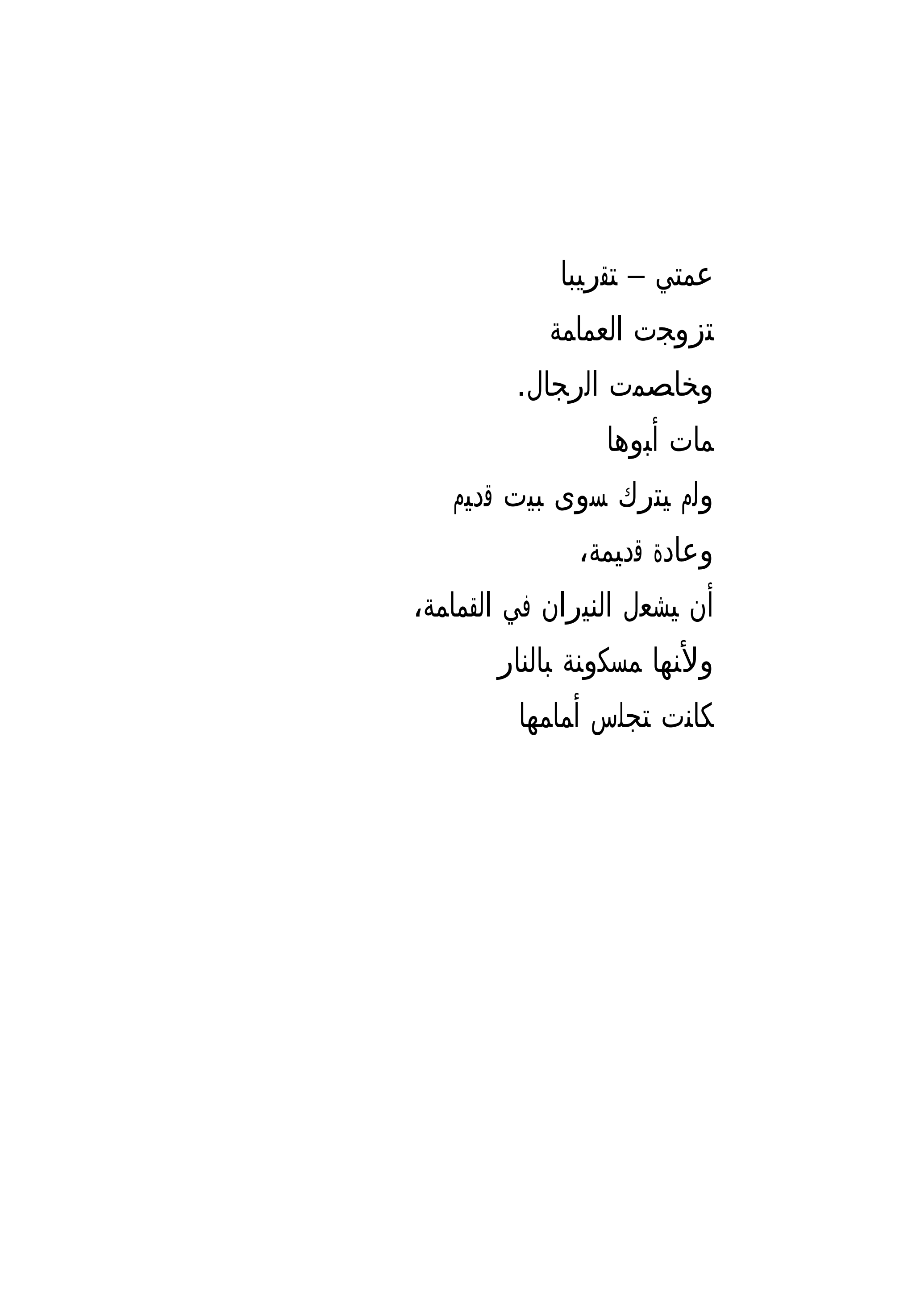
تقول

وتسقط دمعة منها على" الختم"

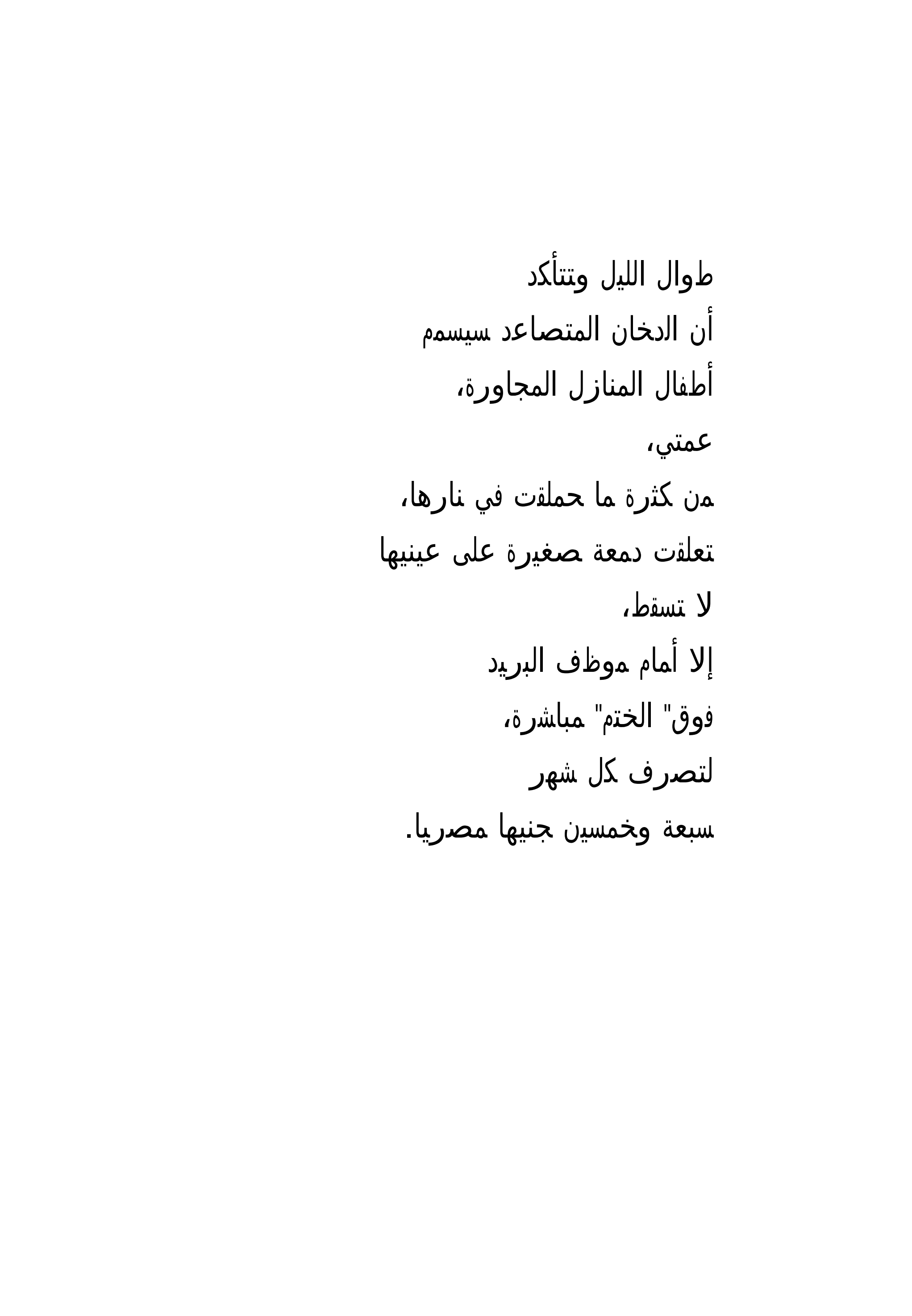
فيطبعه الموظف ثلاثيا



"عزيزة عبد الفضيل خير ا "
عمتي،
التي لم يفكر رجل مبصر
أن يضمها إلى صدره
تزوجت كفيفا منذ ثلاثين عاما
ولم يدخل بها،
حضر أبناؤه وضربوه
رموا عمامته على الأرض
وأجبروه على الطلاق،



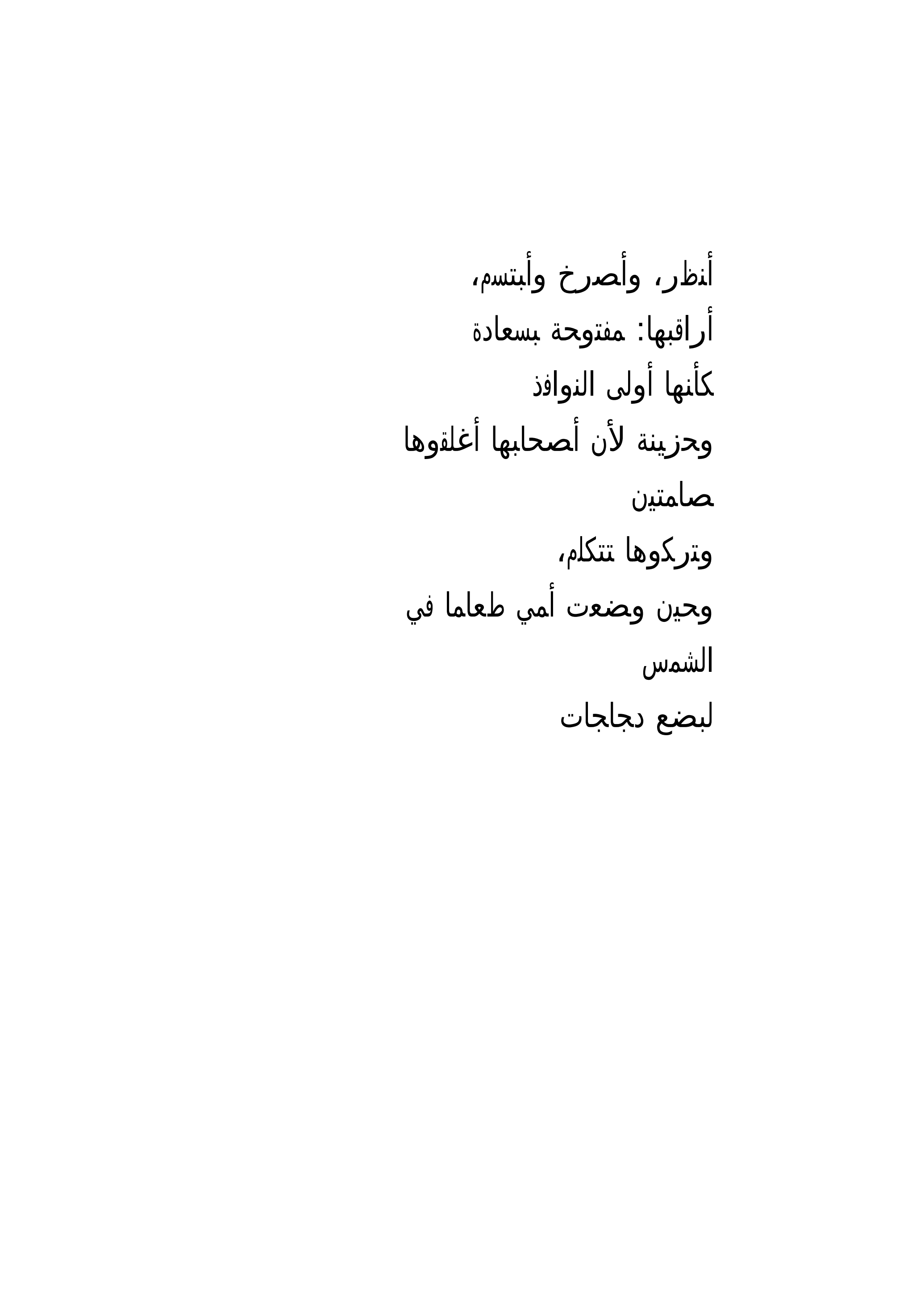
عمتي – تقريبا
تزوجت العمامة
وخاصمت الرجال.
مات أبوها
ولم يترك سوى بيت قديم
وعادة قديمة،
أن يشعل النيران في القمامة،
ولأنها مسكونة بالنار
كانت تجلس أمامها



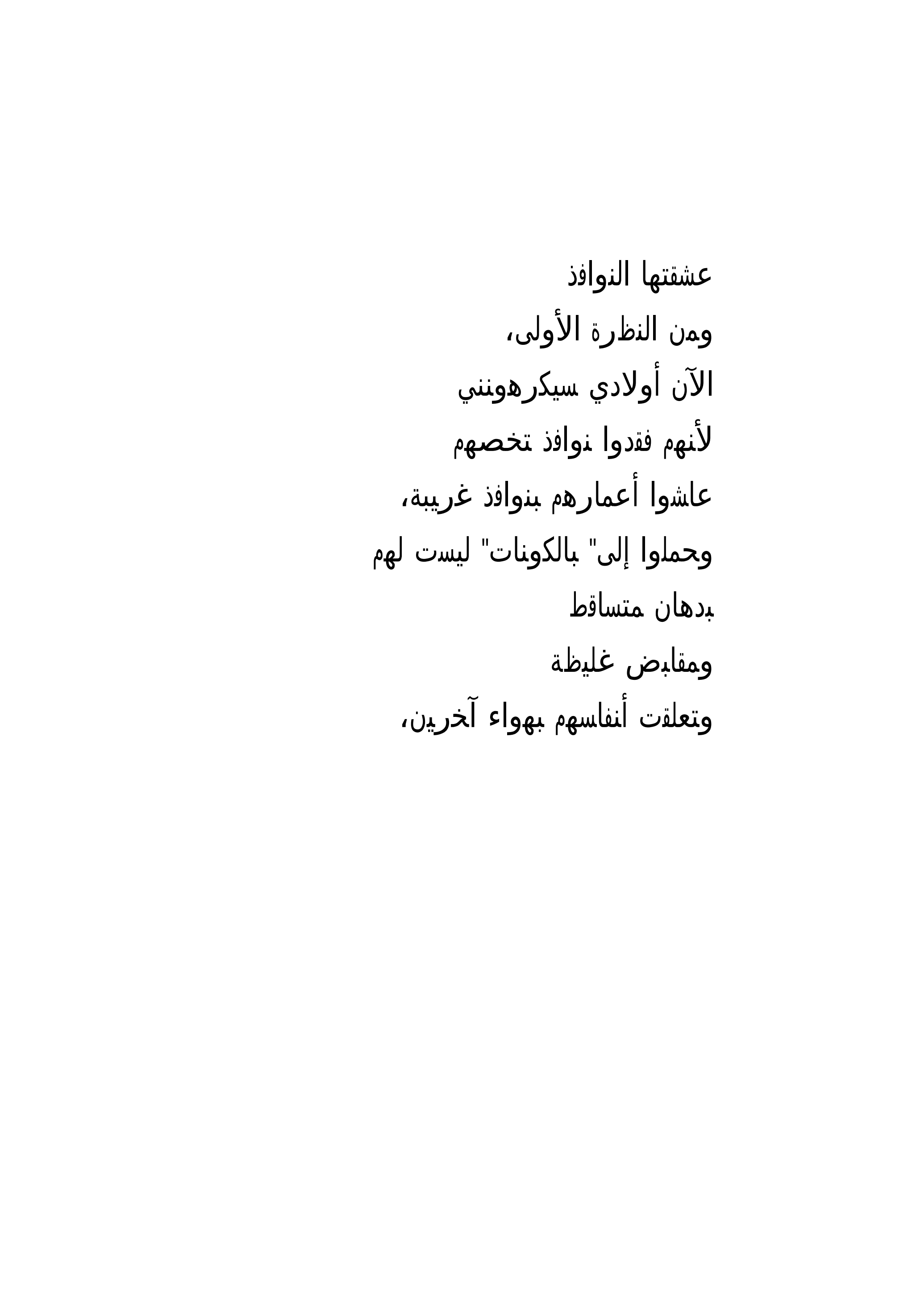
طوال الليل وتتأكد
أن الدخان المتصاعد سيسمم
أطفال المنازل المجاورة،
عمتي،
من كثرة ما حملقت في نارها،
تعلقت دمعة صغيرة على عينيها
لا تسقط،
إلا أمام موظف البريد
فوق" الختم" مباشرة،
لتصرف كل شهر
سبعة وخمسين جنيها مصريا.

خشب ملون

أصحاب النوافذ النظيفة
تساقطت شعيرات رؤوسهم
في أوطان غريبة،
وسنوات كثيرة أمضوها
يحلمون برؤيتها
تنام هادئة فوق الأشجار،
عشتُ ثلاثين عاما
بنوافذ قديمة
وهواء مغبر



أنظر، وأصرخ وأبتسم،
أراقبها: مفتوحة بسعادة
كأنها أولى النوافذ
وحزينة لأن أصحابها أغلقوها
صامتين
وتركوها تتكلم،
وحين وضعت أمي طعاما في
الشمس
لبضع دجاجات



عشقتها النوافذ
ومن النظرة الأولى،
الآن أولادي سيكرهونني
لأنهم فقدوا نوافذ تخصهم
عاشوا أعمارهم بنوافذ غريبة،
وحملوا إلى" بالكونات" ليست لهم
بدهان متساقط
ومقابض غليظة
وتعلقت أنفاسهم بهواء آخرين،

لاشك سيكرهونني
بعد أن مرضوا
وارتجفوا
وتجرعوا دواء مرا
لغياب نوافذهم،
حين تفتح نافذة تخصك
تستطيع ساعتها أن تبكي
بسبب
وبغير سبب،

جعلت النوافذ خصيصا لبكاء

أصحابها،

حتى "المشربيات" القديمة

بكت خلفها الجدات

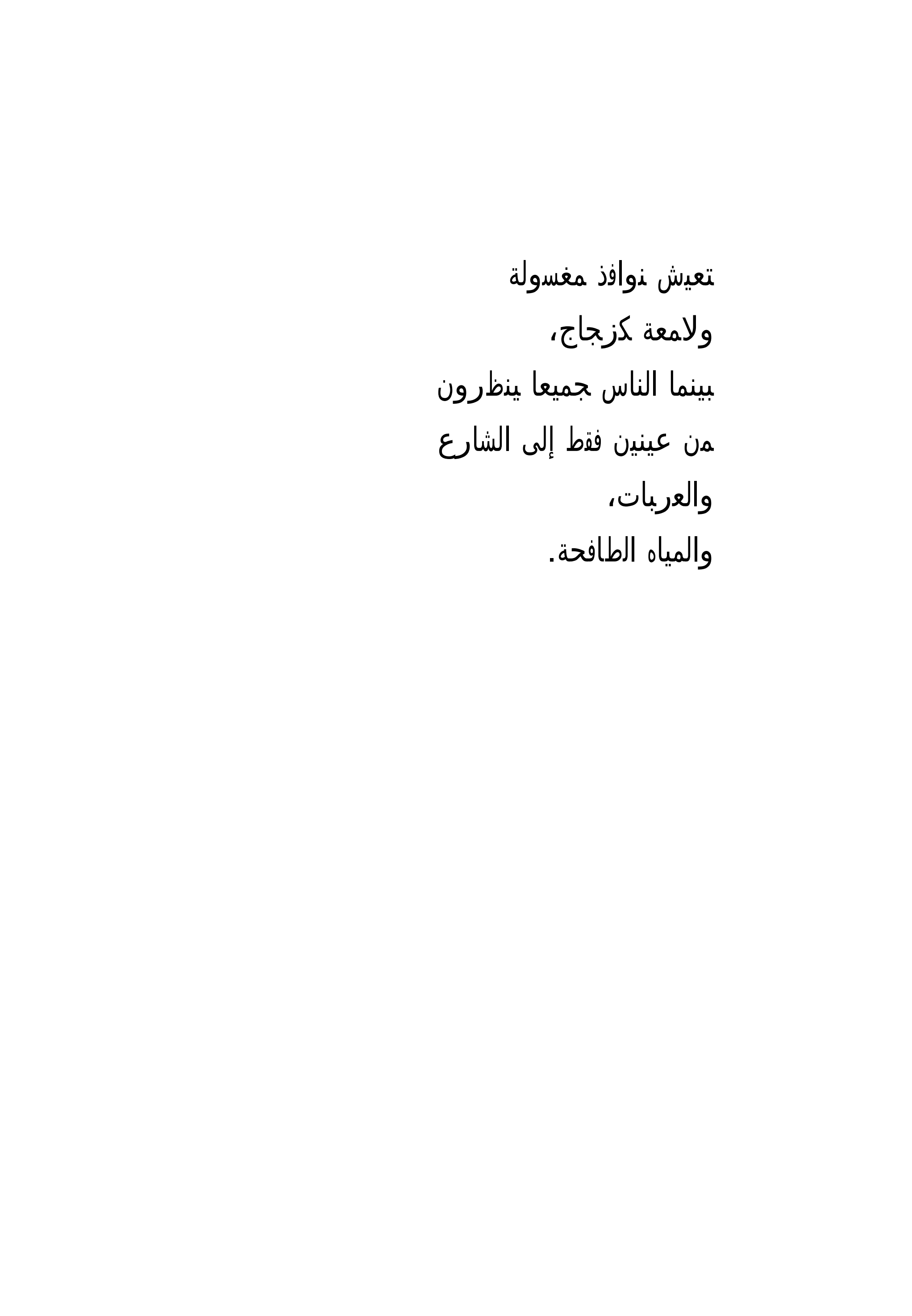
وأورثتنا بكاء كلما شاهدنا النوافذ،

ومثل بعض البشر

تعيش النوافذ ذليلة

بحياة متهدلة وسط تراب،

ومثل آخرين،



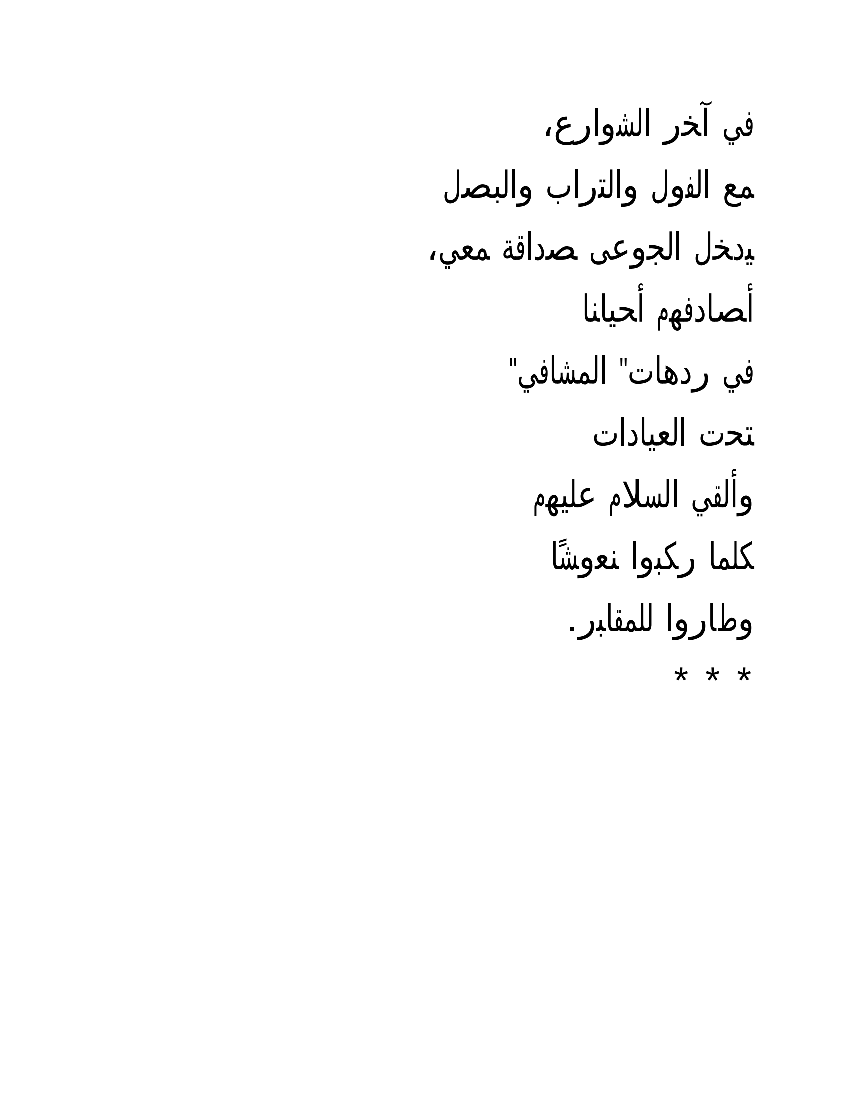
تعيش نوافذ مغسولة
ولامعة كزجاج،
بينما الناس جميعا ينظرون
من عينين فقط إلى الشارع
والعربات،
والمياه الطافحة.

نحن أصدقاء نعوش

حلمت دائما أن أهاجر
بعيدا عن هذا العالم،
فلن تخسر هذه الملايين شيئا
حين تُلقي – بعد ثلاثين عاما-
واحدا منها
إلى البحر.

***

عشت حياتي دائما
مع العربة الملقاة بجوار الطريق



في آخر الشوارع،

مع الفول والتراب والبصل

يدخل الجوعى صداقة معي،

أصادفهم أحيانا

في ردهات" المشافي"

تحت العيادات

وألقي السلام عليهم

كلما ركبوا نعوشًا

وطاروا للمقابر.

* * *

ثلاثون عاما
أصحو مفزوعا
كلما مر نعش صديق،
نحن أصدقاء نعوش
ورواد جنازات
يبدأ الصراخ أولا
مع أذان الفجر
وحين تطل الشمس قليلا
تتحرك نعوش أليفة

حولها آلاف الصرخات،

نحن رواد جنازات

نجامل أحيانًا

بحناجر مشروخة.

* * *

ثلاثون عاما

أجوب شوارع ضيقة

ومقابر،

وبيوتا تتساقط جدرانها

كل عدة أعوام،

فتقتل جيلا أو جيلين،

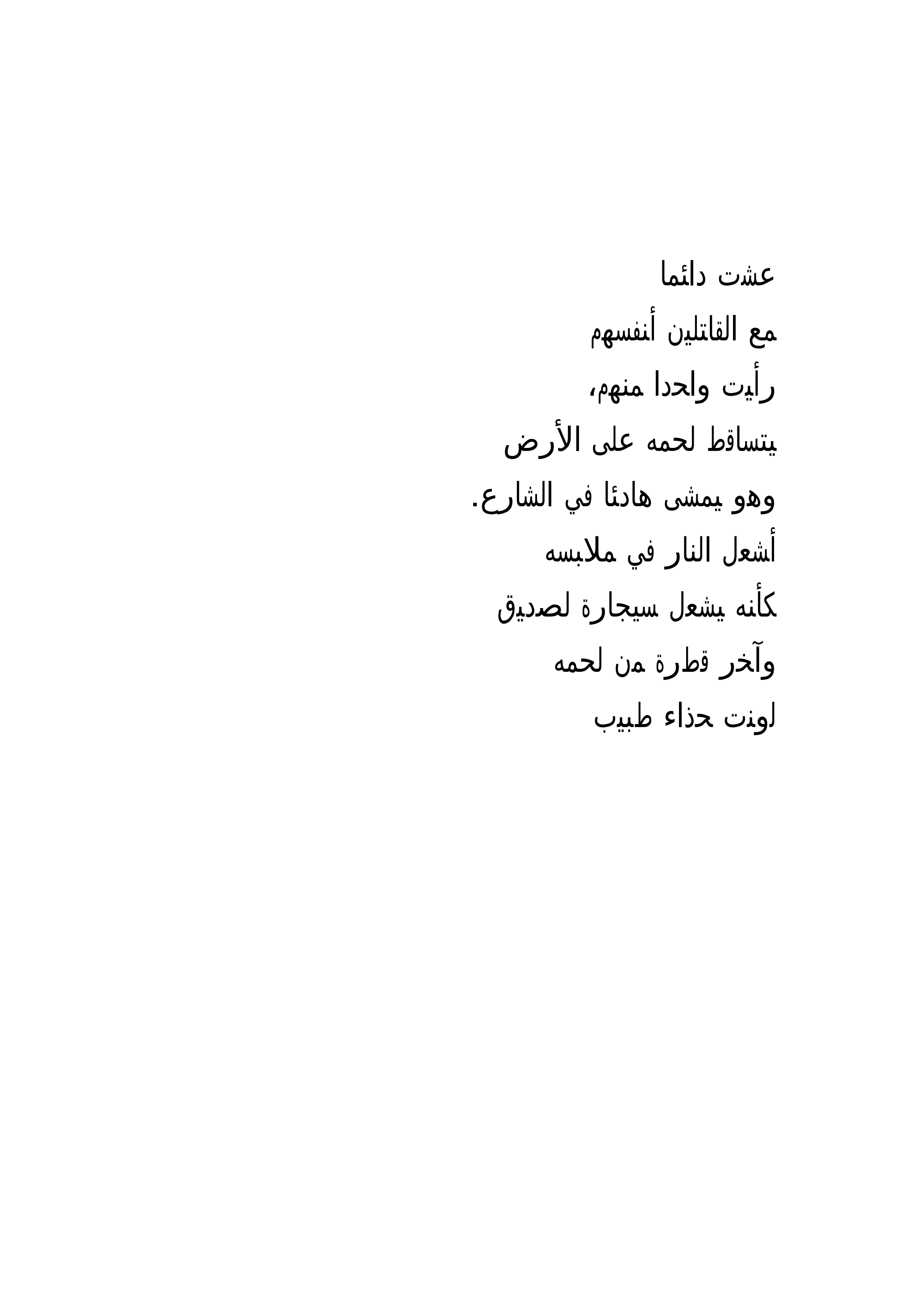
لتستمر الحياة

بأطفال آخرين

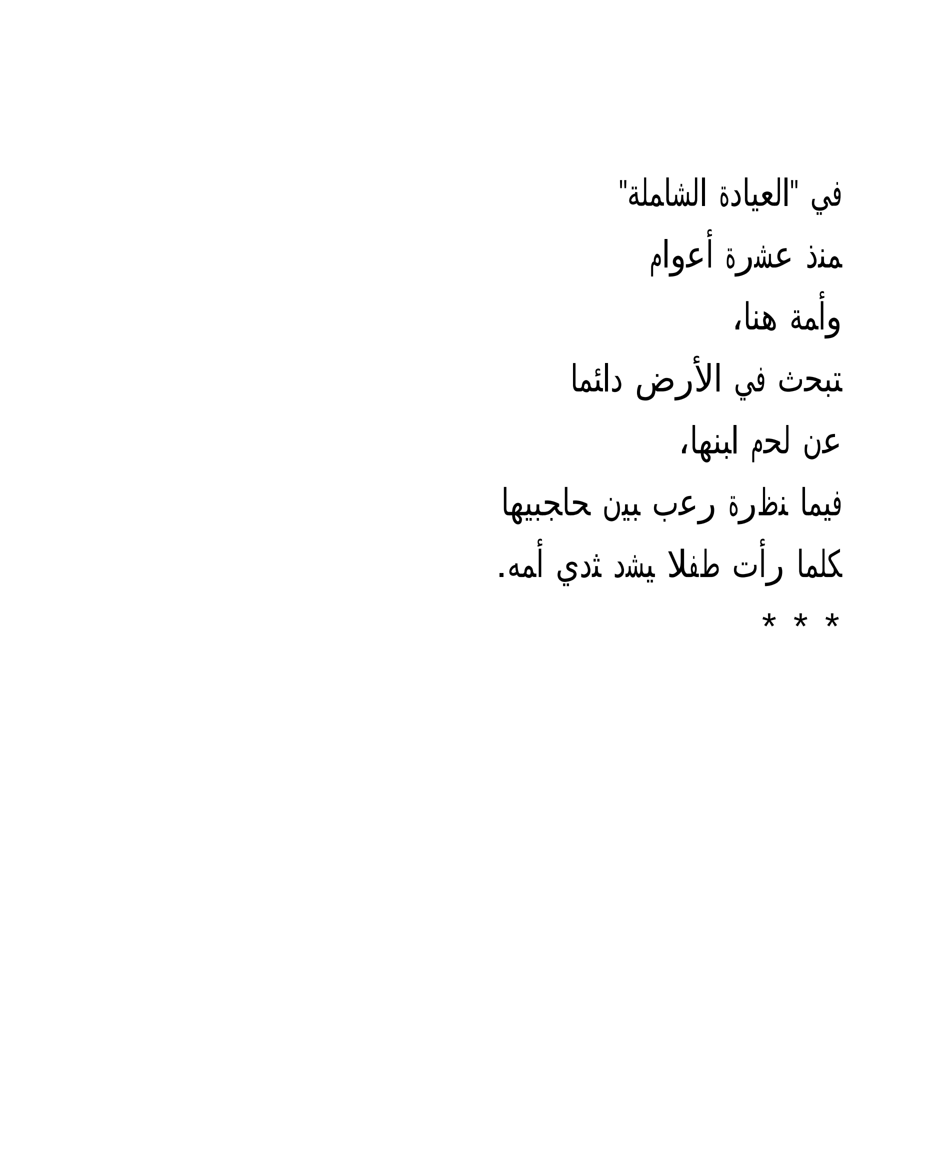
وأمهات يطعمن الطيور

من جديد.

* * *



عشت دائما
مع القاتلين أنفسهم
رأيت واحدا منهم،
يتساقط لحمه على الأرض
وهو يمشى هادئا في الشارع.
أشعل النار في ملابسه
كأنه يشعل سيجارة لصديق
وآخر قطرة من لحمه
لونت حذاء طبيب



في "العيادة الشاملة"

منذ عشرة أعوام

وأمة هنا،

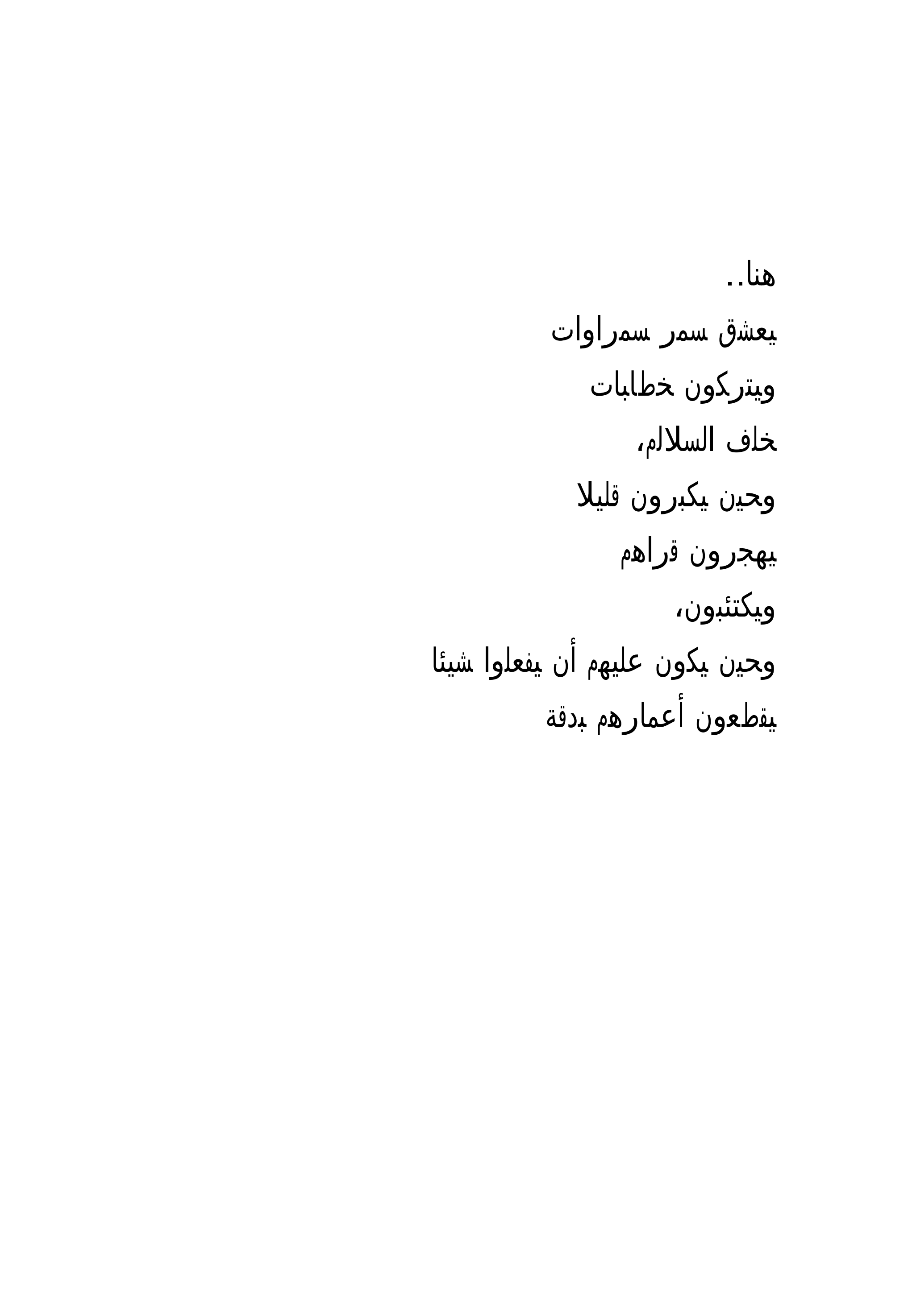
تبحث في الأرض دائما

عن لحم ابنها،

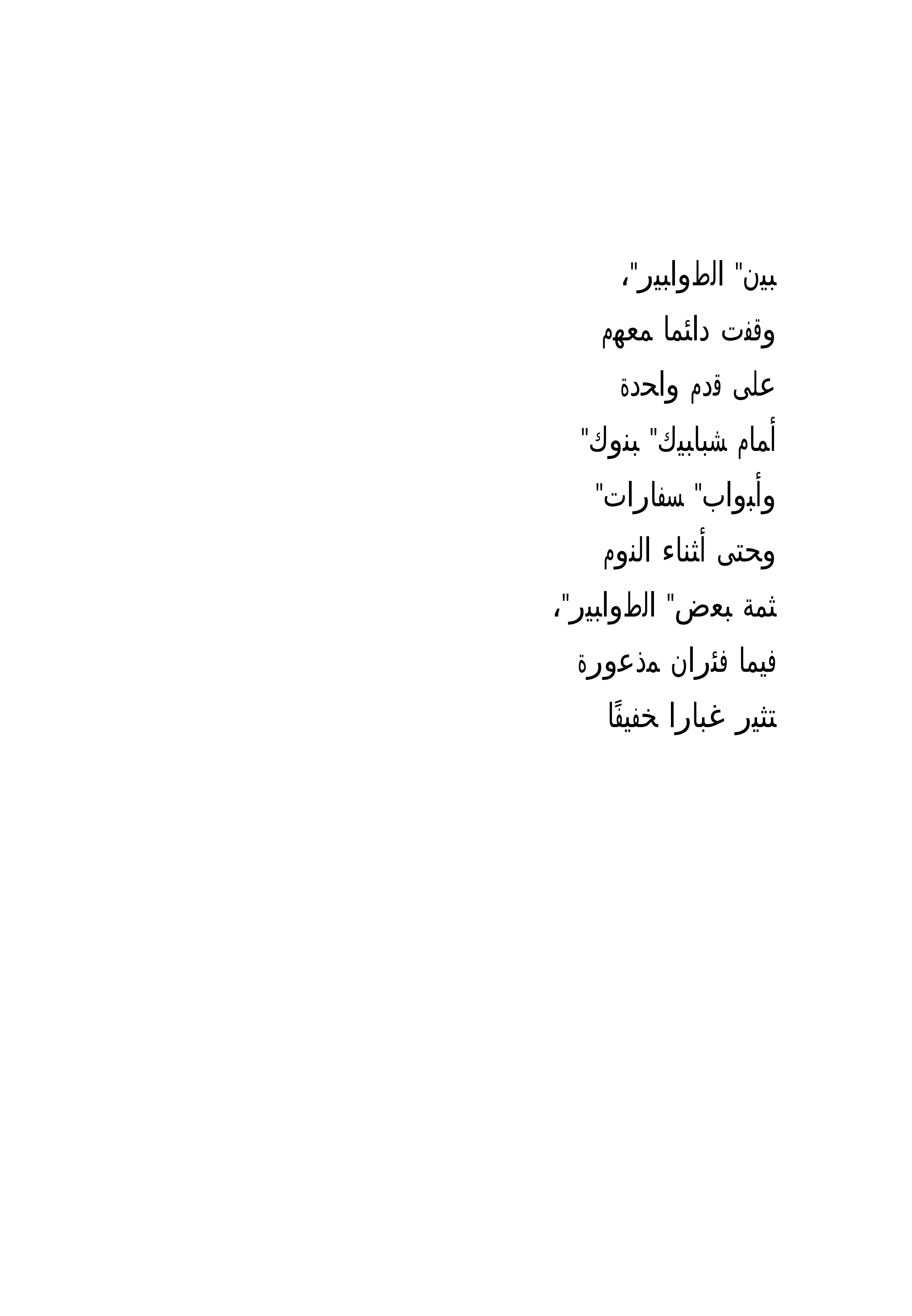
فيما نظرة رعب بين حاجبيها

كلما رأت طفلا يشد ثدي أمه.

* * *



هنا..
يعشق سمر سمراوات
ويتركون خطابات
خلف السلالم،
وحين يكبرون قليلا
يهجرون قراهم
ويكتئبون،
وحين يكون عليهم أن يفعلوا شيئا
يقطعون أعمارهم بدقة



بين" الطوابير"،
وقفت دائما معهم
على قدم واحدة
أمام شبابيك" بنوك"
وأبواب" سفارات"
وحتى أثناء النوم
ثمة بعض" الطوابير"،
فيما فئران مذعورة
تثير غبارا خفيفًا

بين الأقدام،

غبار سود رئتي

أنا الحالم بالهجرة

من هذا العالم..

هنا طوابير" الجمعية"

طوابير" أنابيب الغاز"

طوابير" الخبز"

ورغم ذاك،

شباب يضحكون عادة

ويحكون ما بين الأفخاذ

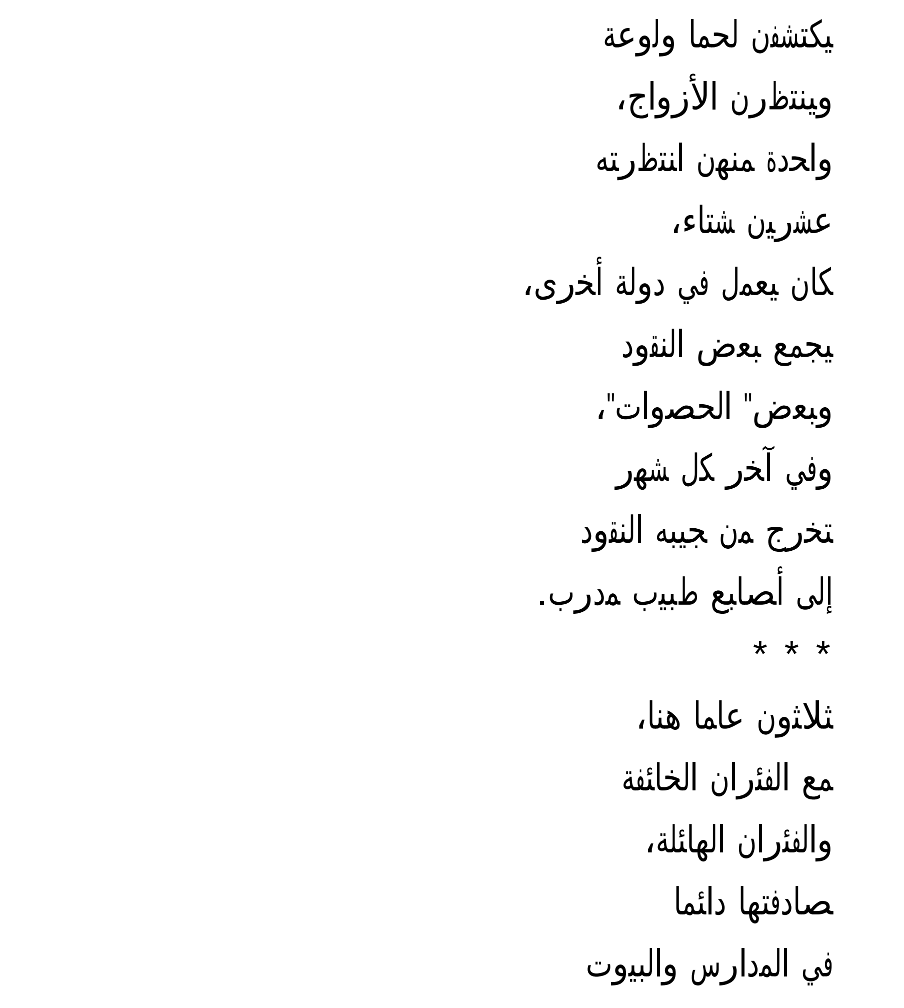
كلما همست مؤخرة امرأة

من تحت الجلباب،

***

ثلاثون عاما هنا،

مع غاسلات الصحون



على شواطئ الترع
يكتشفن لحما ولوعة
وينتظرن الأزواج،
واحدة منهن انتظرته
عشرين شتاء،
كان يعمل في دولة أخرى،
يجمع بعض النقود
وبعض" الحصوات"،
وفي آخر كل شهر
تخرج من جيبه النقود
إلى أصابع طبيب مدرب.
* * *
ثلاثون عاما هنا،
مع الفئران الخائفة
والفئران الهائلة،
صادفتها دائما
في المدارس والبيوت
وفي مكاتب العمل،

وحين صرت صحافيا
زاملتني الفئران الهائلة

واحتلت أدراجي،
وحين كنت أغيب
كانت تأخذ كرسي
وتحضر بدلا مني،
في هذا العالم.
* * *

عشت دائما هنا

وربما أكون خائنا

لأنني أحببت أن أهاجر

فلن تجني هذه الملايين شيئا

لو ألقت – بعد ثلاثين عاما-

واحدا منها

إلى البحر.

ظل شجرة في المقابر

قليوب

في أول الشارع

باع شاب كليته

بخمسين ألف جنيه

وافتتح مشروعا في قرية مجاورة

بعد عامين

باع عينه اليسرى في عيادة الطبيب

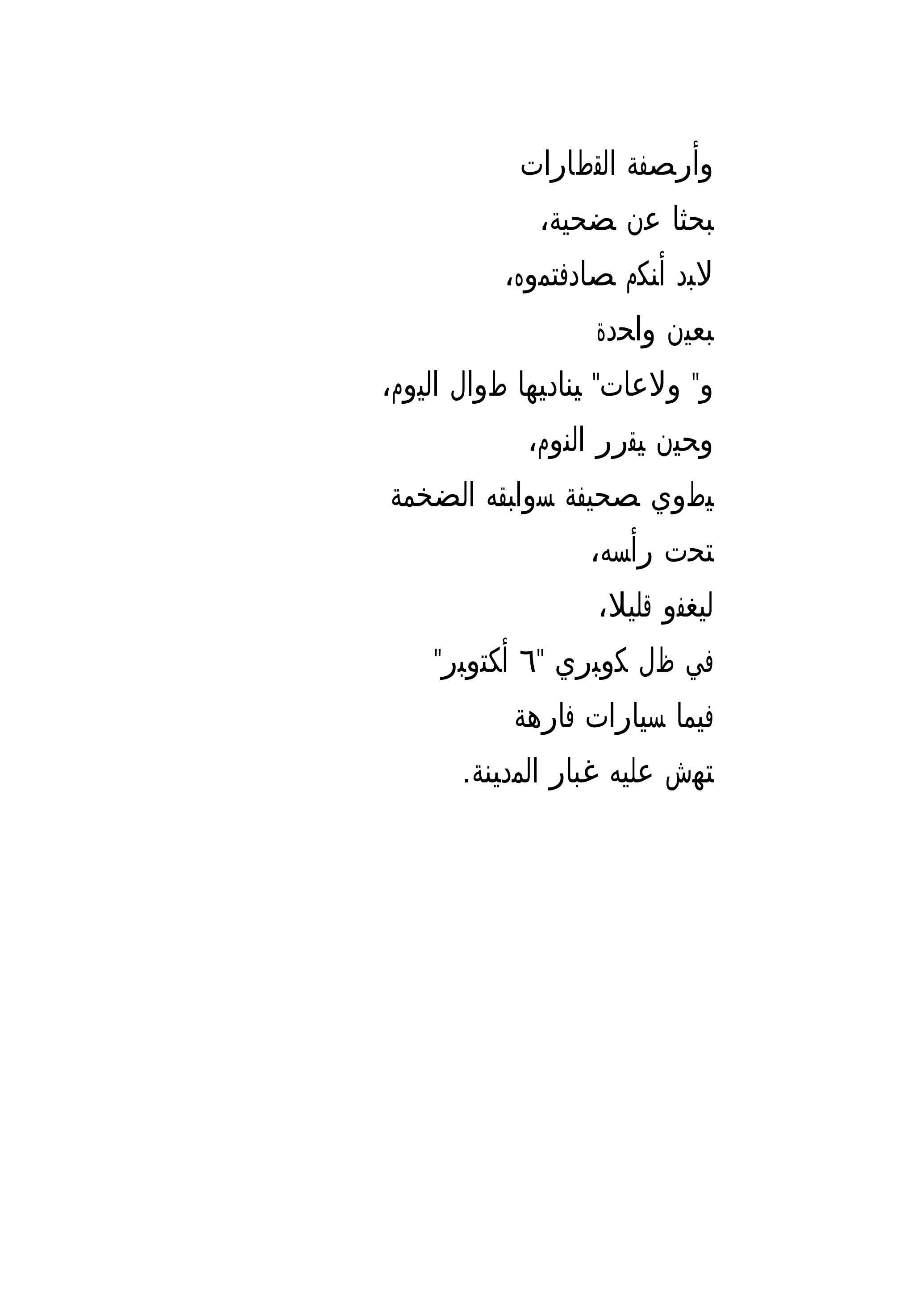
بتسعين ألفا..،

وافتتح" كشري المدينة المنورة"..،،

في أول الشارع

ولد مفلس،

يتجول بين محطات المترو



وأرصفة القطارات

بحثا عن ضحية،

لابد أنكم صادفتموه،

بعين واحدة

و" ولاعات" يناديها طوال اليوم،

وحين يقرر النوم،

يطوي صحيفة سوابقه الضخمة

تحت رأسه،

ليغفو قليلا،

في ظل كوبري "٦ أكتوبر"

فيما سيارات فارهة

تهش عليه غبار المدينة.

في شارع عرضه أربعة أمتار

لم تكن تحلم ولو في كابوس

أنها ستصير شاحبة إلى هذا الحد

الأم،

التي غسلت ملاءات بيتها

ملايين المرات

في عشرة أعوام متصلة،

لم تعد أما،

ضاعت أحلامها فجأة

حين تزوجت من أول كف دقت الباب،

باثنين وخمسين مترا مربعا
وطفل ينام عادة
محتضنا لعابه.
لم تكن تحلم ولو في كابوس
أن ملاءات بيتها ستبكي
بدموع غزيرة هكذا
لدرجة أن المارة سوف يصنعون
لأنفسهم مراكب
ليعبروا تحت شرفتها بسلام.

في ذكرى الاستقلال

وأنا أنزف من قلبي
ثلاثة عقود متصلة
جاءت إلى الدولة:

- شركات عملاقة لمنتجات اللبان
- قاعات المؤتمرات مملوءة بالدببة
- عرق الجباه رخيص،

يبقى أن أبول باستمرار
أمام نشرات الأخبار.

مائة وخمسون قتيلا.. في أسرتهم

لم تكن ساحة إعدام

ولا سكينة طولها عشرات الأمتار

وفي المعركة لم يسقط غرباء

أو عابرو سبيل،

شق القطار مدينة إلى نصفين

والناس سبحوا للغبار

حين انحدرت بيوتهم وعادت

إلى سيرتها الأولى

تراب..

لكنه مملوء بلحوم أطفال وكلاب

وعظام شيوخ،

كشف القطار السجاجيد القديمة

والمطابخ

وقمصان النوم الحمراء،

وحين استقرت الغيوم

وجدوا منازلهم مكشوفة

أمام ضيف ثقيل،

كان القطار صديقا لهم،

ويسلم ولا يدخل،

يصفر بهدوء ويمشي ببطء

وكان يأسف لأجلهم

إذا دهس خروفا

من دون قصد،

لكنها لم تكن ساحة إعدام،

بعد شهور طويلة

حصدوا الضحايا

ورتبوا بضع شجيرات

زرعوها في عجالة

وانصرفوا.

الخبز

الذي وقفوا الساعات لأجله،
لم يكن خبزا هذا
كان دمعا يهطل
عضلات تفتل
كان أمثلة شعبية
وحزنا يقطر..
فبعد عشرين عاما
من إغلاق هذا" المخبز"
مازلت أسمع ضجيجا في أذني،
وأرى بشرا يتشاجرون
كأنهم داخل معدة إله ظالم.

لم يكن يعرف فصيلة دمه

كان يهش" الناموس" الجائع

برموشه،

ويمشي في ضوء الفجر

مثل الأشباح،

بعظام منخورة

وقلب خفيف،

مسكين..

ذاك النائم فوق" عشة الصفيح"

كلما زاد دمه خلال النهار

راح إلى الناموس خلال الليل.

سيرة ذاتية

في بيوتنا لا توجد حدائق!

- مزهريات بائسة

ولا عطور للصيف!

- بعضنا يستحم مرتين يوميا

ولا دولاب ملابس!

- نستدين لأجلها كل عدة أعوام

ولا حبيبات ينتظرن!

- نفكر في الزواج بإلحاح

وننجب.

في الأقاليم

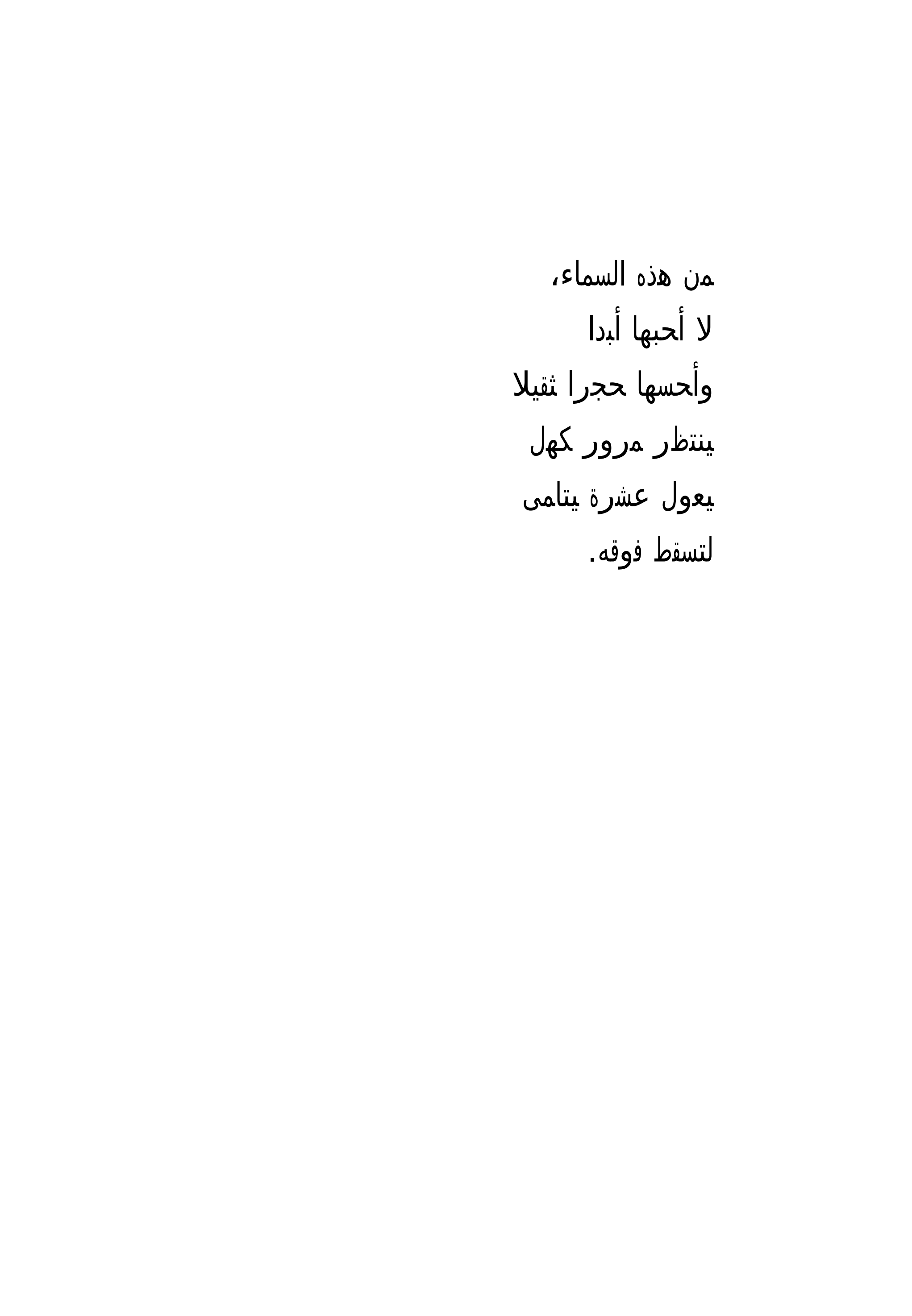
يحكون ما بين الأفخاذ
بتلذذ،
يلقون على بعضهم تحيات
ويبصقون،
يطلون من شرفات الطابق الأول
دائما،
وكأن الحياة واقفة على شواربهم
كذبابة.

بعضهم تجاوز الأربعين ربيعاً

بداية جولتهم في المقهى
ونهايتها في الحقول مساء،
معهم لفافات
وتبغ
ونعاس كثير،
ثم يودعون بعضهم بغمزة
وإذا مر رجل وامرأة
يتحسرون.

اذهبوا إلى المستشفيات لتتأكدوا

لا أحب السماء أبدا
لها قميصان من أبيض وأسود
تبدلهما وقتما تشاء
وتأخذنا جميعا على غفلة،
وإذا كنت غارقا في النوم
ستضربك الشمس بكف ثقيل،
وإذا سهر الواحد ليلة بانتظارها
تكون اللعينة في مكان ما



من هذه السماء،
لا أحبها أبدا
وأحسها حجرا ثقيلا
ينتظر مرور كهل
يعول عشرة يتامى
لتسقط فوقه.

فرقوا دمهم.. بدلا من القهوة

زرعوا قمحا أصفر

حصدوا أدوية السرطان،

زرعوا برسيما،

حصدوا شللا نصفيا،

وحين ملوا الطريق إلى المقابر

حولوا بعض منازلهم

إلى دور مناسبات،

ويكون العزاء غالبا

على سبيل الإبادة.

الذين نزلوا من القطار

منذ عقود أربعة

تساءل ثلاثة فلاحين

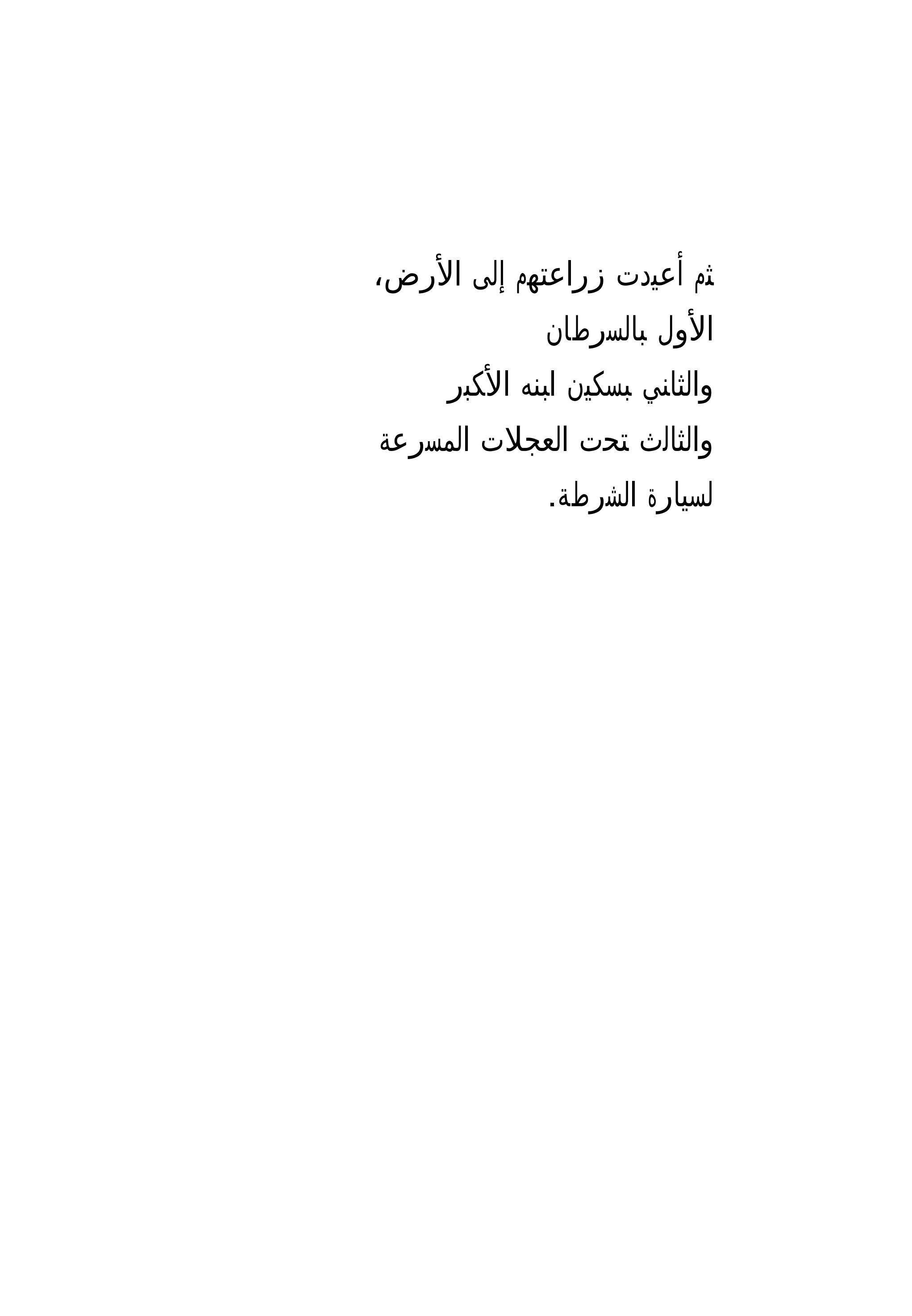
من" منوف"

عن المهر

والأثاث

والزوجة الطيبة،

لكنهم تفرقوا



ثم أعيدت زراعتهم إلى الأرض،

الأول بالسرطان

والثاني بسكين ابنه الأكبر

والثالث تحت العجلات المسرعة

لسيارة الشرطة.

قصة

قديما..

عاش حاكم على نهر

ثلاثين عاما،

يأكل ويقتل ويجمع الهدايا،

كان له اثنان وعشرون وزيرا

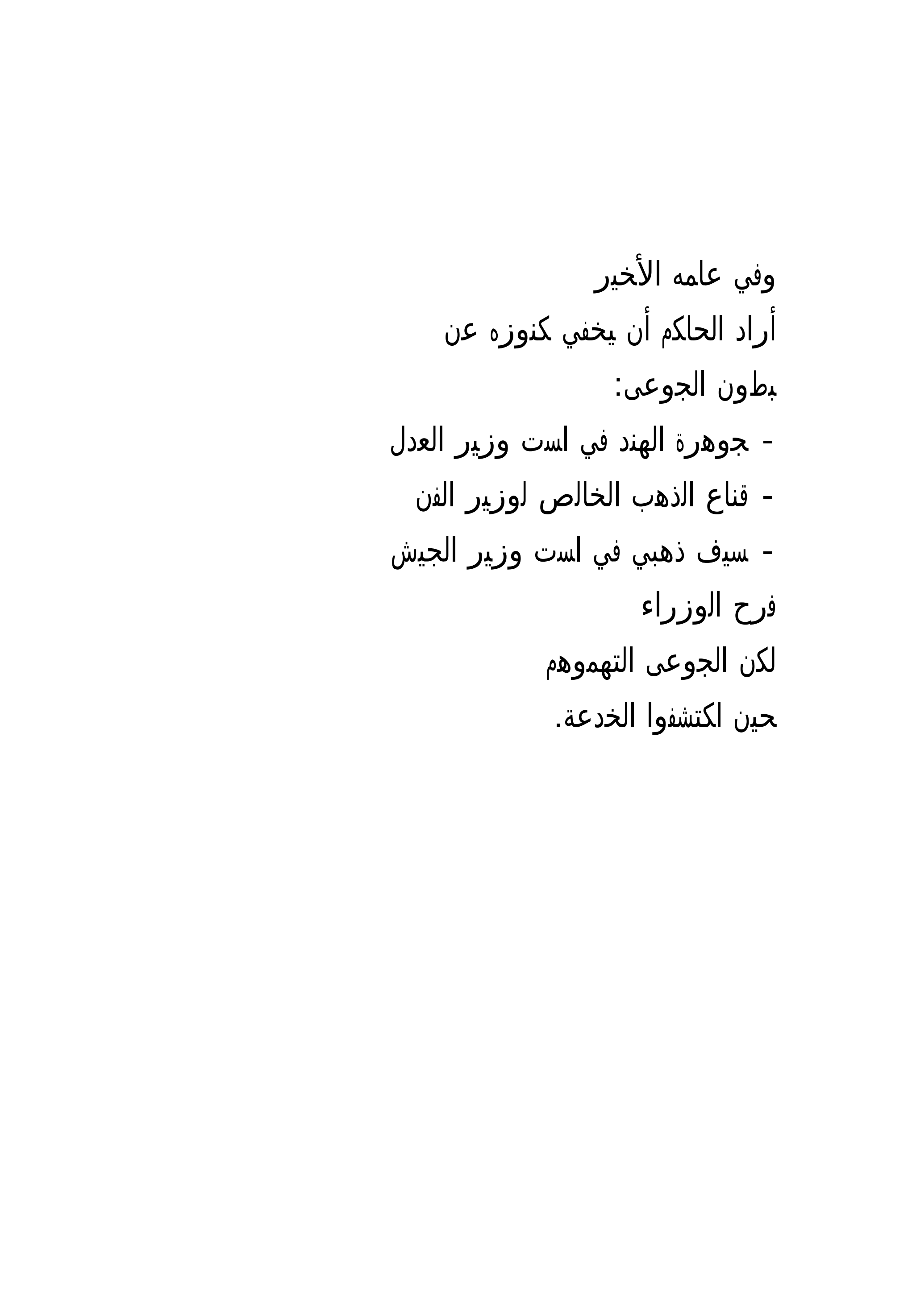
يعاملهم كاثنتين وعشرين" فتحة است"

إذا فكر أن يبول

- أثناء اجتماع الوزارة -

يفتح وزير الأرض فمه

على هيئة "بالوعة"،



وفي عامه الأخير
أراد الحاكم أن يخفي كنوزه عن
بطون الجوعى:
- جوهرة الهند في است وزير العدل
- قناع الذهب الخالص لوزير الفن
- سيف ذهبي في است وزير الجيش
فرح الوزراء
لكن الجوعى التهموهم
حين اكتشفوا الخدعة.

ليست مصادفة

ليست مصادفة
أن يشم أنفى كل صباح خمس روائح:
رائحة البن
رائحة عوادم سيارات الدولة
رائحة الدم،
ورائحة اللحم المحروق من جسد
"العملة المصرية".

مثل عمود إنارة في الشارع

(١)
أبلغ نهدين
أبيض فخذين
وأجمل مؤخرة
كانت لفتاة خرساء
يصفعها العشاق عادة
قبل أن يولجوا.
(٢)
الخرساء تزوجت أعرج
قالت المسنات: "جمع ووفق"
طلقها بعد أيام
فقال:" شربت كلاب من الماعون".

(٣)

في حمالة صدر الجارة

مصباحان

يضيئان عادة كل مساء

خمس دقائق،

حين أطل من الشرفة.

(٤)

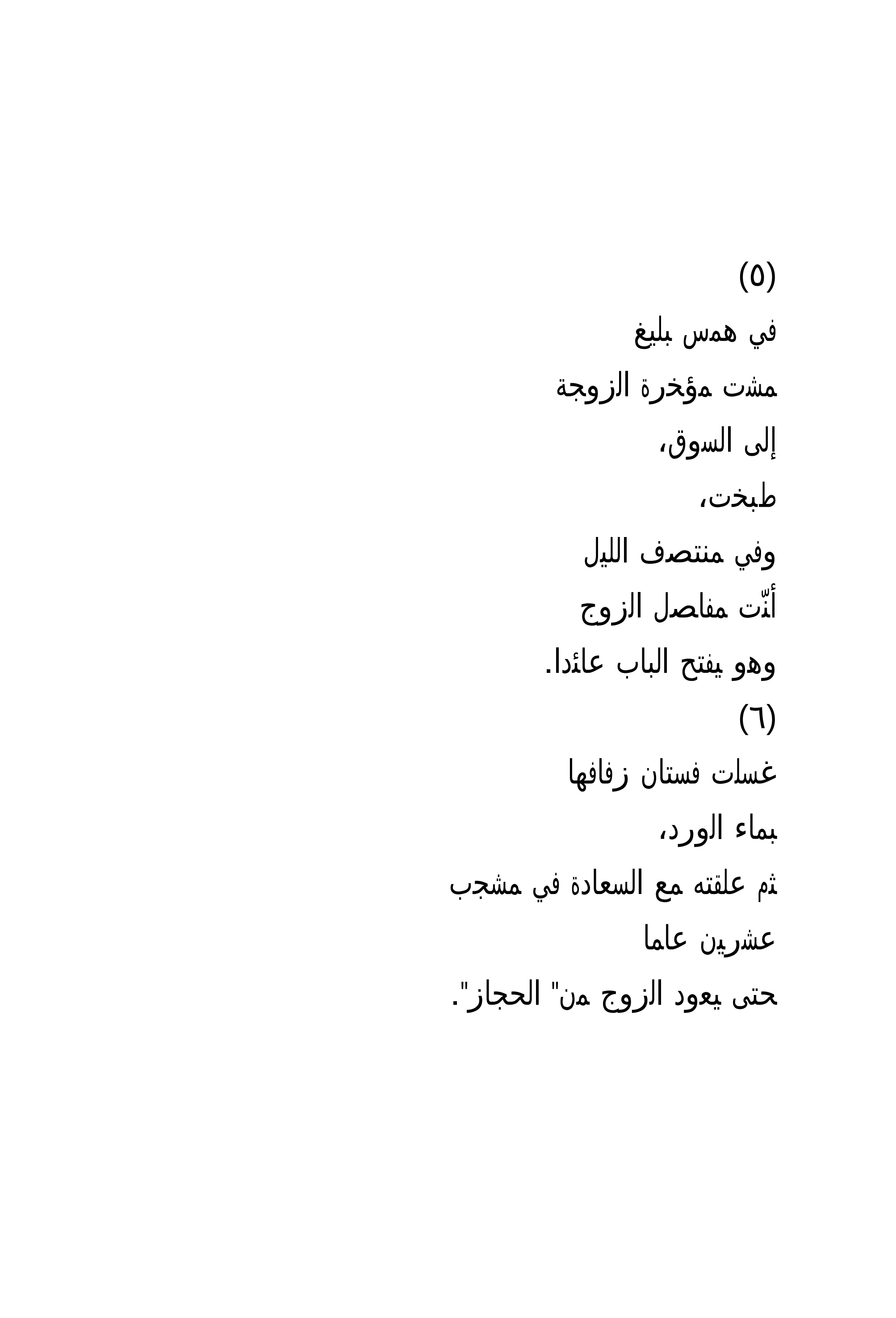
عاد بلحية

من بلاد المملكة،

فداهمته الزوجة السمينة

بقبلة وحضن

أما عيون المارة.



(٥)

في همس بليغ

مشت مؤخرة الزوجة

إلى السوق،

طبخت،

وفي منتصف الليل

أنّت مفاصل الزوج

وهو يفتح الباب عائدا.

(٦)

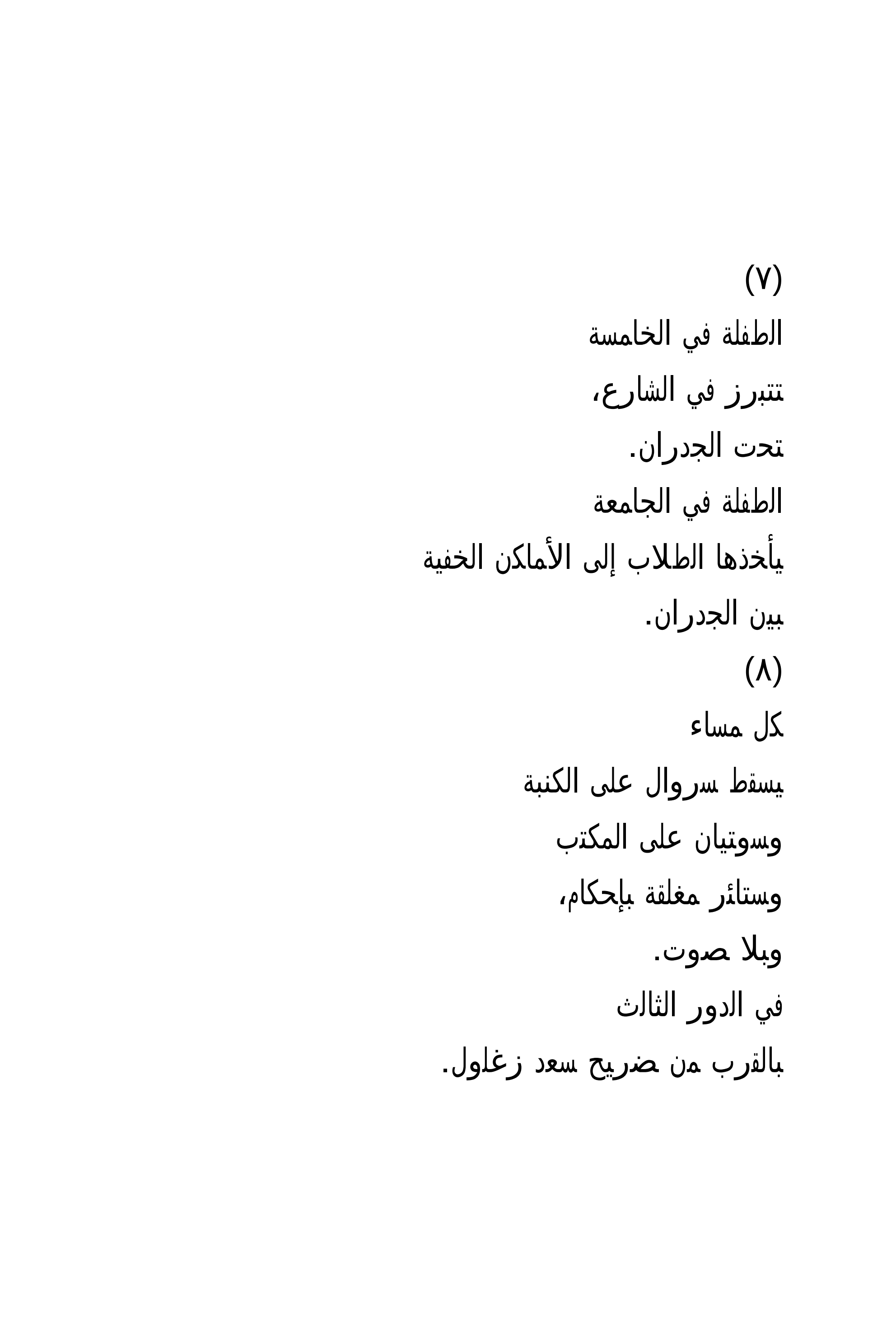
غسلت فستان زفافها

بماء الورد،

ثم علقته مع السعادة في مشجب

عشرين عاما

حتى يعود الزوج من" الحجاز".



(٧)

الطفلة في الخامسة

تتبرز في الشارع،

تحت الجدران.

الطفلة في الجامعة

يأخذها الطلاب إلى الأماكن الخفية

بين الجدران.

(٨)

كل مساء

يسقط سروال على الكنبة

وسوتيان على المكتب

وستائر مغلقة بإحكام،

وبلا صوت.

في الدور الثالث

بالقرب من ضريح سعد زغلول.

(٩)

بسبب قميصك الأحمر

في الشرفة،

رسب خمسة طلاب في الثانوي

وقبل أن يتخرجوا

نجح صاحب" السوبر ماركت"

في فتح فخذيك كل مساء

بمطواة.

(١٠)

بين فخذي فتاة في الريف

بقايا لافتة انتخابية،

بين فخذي فتاة

في ميدان التحرير

آخر ما أنتجه

عقل الاستبداد،

وعلى كل منهما" العادة".

(١١)
خمسة شوارع مضاءة
بمئات المصابيح،
وبشر يبتسمون،
ومن الشرفة المجاورة،
يتدفق دخان أسود
من عاشق مهزوم.
(١٢)
أوصتها أمها بسوتيان أسود
وبلوزة بيضاء،
لأول يوم في الدراسة الجامعية،
أوصتها أمها بالمفارقة
لاصطياد الرجال.

بعدما دهسهم قطار السلام

(١)

الحمقى،

سهروا يضحكون إلى آخر الليل،

ثم بعد قليل

جاء زوار الفجر،

أوقفوا الهواء على شواربهم

ومنعوا الشهيق،

فيما أخذوا الزفير معصوبا

إلى مكتب القائد.



(٢)

تدربوا على الرماية

والقتل

ونسوا كل شيء عن الحرية،

في أول المعارك

تساقطوا بين أصابع الأعداء،

وفي الصباح

نزلت دماؤهم إلى باطن الأرض،

وتصافح الخصمان،

فيما الحرية تسكر

منذ ثلاثين عاما

في بارات" وسط البلد".

(٣)

بأصابع نحيلة

وجباه مقطبة،

وعدة أوامر

أطلقتها" ثلاث نجوم ونسر"

استعدوا..

ثم بعد قليل.. صوبوا.

أربعون عينا داخل المعسكر

باتجاه عشرين هدفا ثابتا،

فيما أهداف متحركة

تمشى وراءهم

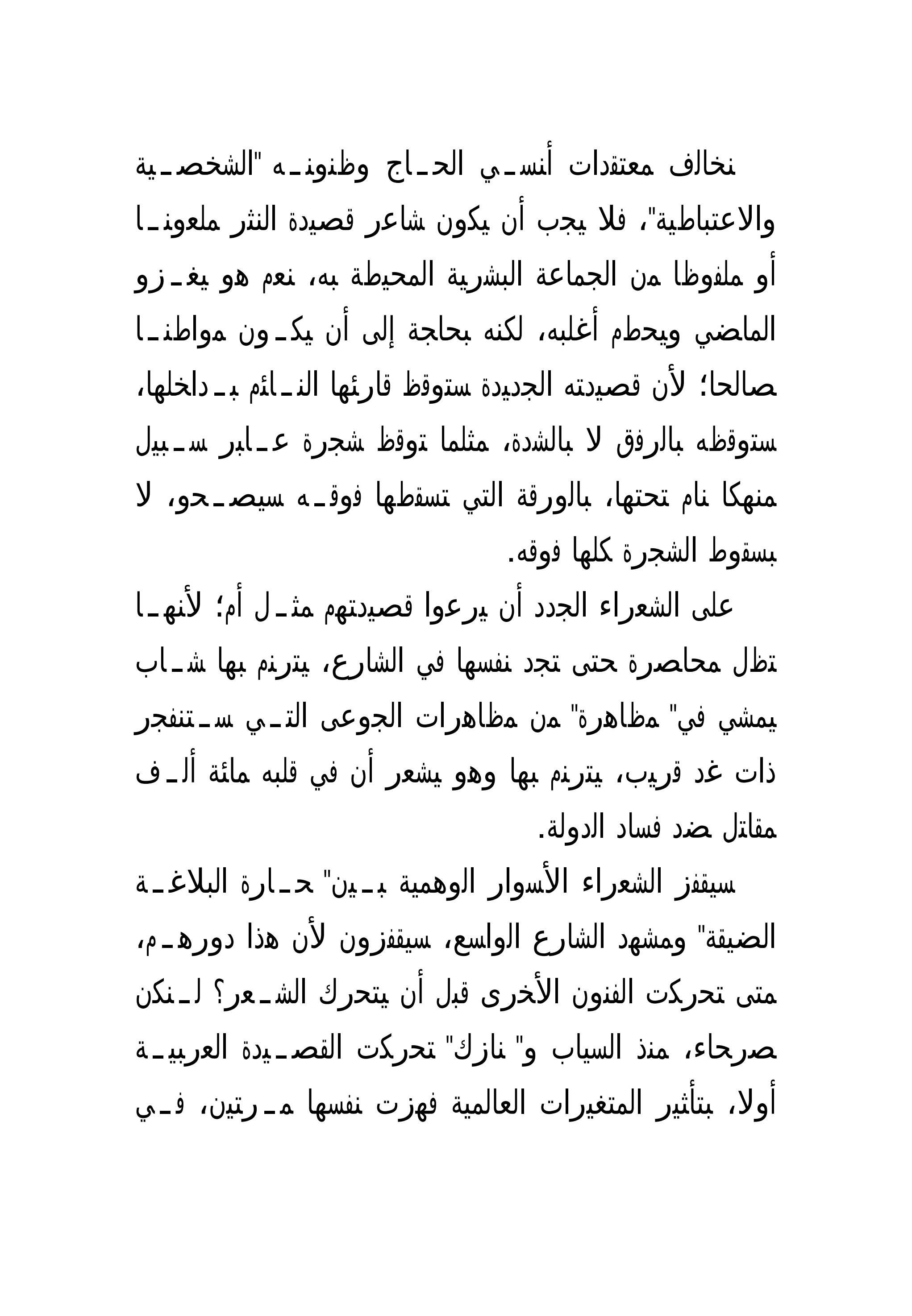
وتنهش مؤخراتهم

بنهم.

قصيدة النثر.. بيان شخصي

-١-

عومات قصيدة النثر دائما وكأنها" وثبة إلـى المجهـول" – حسب تعبير أنسي الحـاج- أو كأنهـا ملزمـة بشـروط "الإيجاز، التوهج، المجانية" التي استقاها الشـاعر اللبنـاني القديم من" سوزان برنا"، اليوم لسنا بحاجة إليهمـا، "أنسـي وسوزان"، نحن نطالب فقط قصيدة تتجـاوز مآسـي" أنسـي الحاج" مع اللغة الغامضة الفضفاضة والجحيمية في ألغازها، نطالب قصيدة تمارس هيمنتها في قراءة المشهد اليومي مـن دون أن تفتعل لنفسها قفصا جديدا مع اللغة، لم لا ننتقل مـن لزوجة الدلالة إلى "حساسية المشهد" كي يعود النـاس إلـى رؤية إحباطاتهم متجسدة في قصيدة النثـر، بعـدما أطلقـت الذائقة العربية، رصاصة الرحمة على القصـيدة العموديـة وصمت الأذن العربية من صراخ شعراء التفعيلة وجعيـرهم العالي؟



نخالف معتقدات أنسـي الحـاج وظنونـه "الشخصـية والاعتباطية"، فلا يجب أن يكون شاعر قصيدة النثر ملعونـا أو ملفوظا من الجماعة البشرية المحيطة به، نعم هو يغـزو الماضي ويحطم أغلبه، لكنه بحاجة إلى أن يكـون مواطنـا صالحا؛ لأن قصيدته الجديدة ستوقظ قارئها النـائم بـداخلها، ستوقظه بالرفق لا بالشدة، مثلما توقظ شجرة عـابر سـبيل منهكا نام تحتها، بالورقة التي تسقطها فوقـه سيصـحو، لا بسقوط الشجرة كلها فوقه.

على الشعراء الجدد أن يرعوا قصيدتهم مثـل أم؛ لأنهـا تظل محاصرة حتى تجد نفسها في الشارع، يترنم بها شـاب يمشي في" مظاهرة" من مظاهرات الجوعى التـي سـتنفجر ذات غد قريب، يترنم بها وهو يشعر أن في قلبه مائة ألـف مقاتل ضد فساد الدولة.

سيقفز الشعراء الأسوار الوهمية بـين" حـارة البلاغـة الضيقة" ومشهد الشارع الواسع، سيقفزون لأن هذا دورهـم، متى تحركت الفنون الأخرى قبل أن يتحرك الشـعر؟ لـنكن صرحاء، منذ السياب و" نازك" تحركت القصـيدة العربيـة أولا، بتأثير المتغيرات العالمية فهزت نفسها مـرتين، فـي

الأولى انكسر" عمودها الشعري" ١٩٤٨ وفي الثانية تبعثرت أشلاء تفعيلتها وتاهت وسط الغبار السياسـي العربـي بعـد الانتفاضة الفلسطينية الأولى ١٩٨٧ وما لحقها، انظر!! كـم هي حساسة ومخلصة لأفقها الاجتماعي هذه القصيدة العربية!

لقد عدلت أوضاعها لكي تصف المشهد العربي من زاوية جديدة، لتكون قادرة على مواكبة كـل هـذه البـؤس، ولأن فلسطين هي قلب هذا المشهد وبؤبوء عينه، تحركت القصيدة العربية لأجلها مرتين.

داخليا لم تهمل قصيدة النثر قضية الصراع الاجتمـاعي أو قصته، مثلا تأمل أهوال الحرب الأهلية اللبنانية في ديوان "بسبب غيمة على الأرجح" لوديع سعادة – ١٩٩٢، وتأمـل إعجاب فصيل من شعراء قصيدة النثر المصرية به، ستدرك أننا سننجح يوما في قفز هذه الأسوار الوهميـة ذات مـرة، الإيقاع واحد والمشاهد عدة.

سنقفز هذه الأسوار بقصيدة لا تكاد تنتهـي حتـى تبـدأ سطورها من جديد، بدم مختلف عن دمائنا، دم ضخته قلوب تنسمت الحريـة- بـلا تزويـر- وشـاركت فـي الحيـاة الديمقراطية- لا في الحياة الأمريكية- وتداولت السلطة – لم

تورثها- ثم عطرته قبلات الحبيبة فـي الشـارع – لا فـي الخفاء- ثم مشى صاحبه في" مظاهرة" ورفع لافتـة لأجـل العدالة الاجتماعية فعومل كإنسان محتج، لا كفأر يفكر فـي ثقب إبرة للهرب.

-٢-

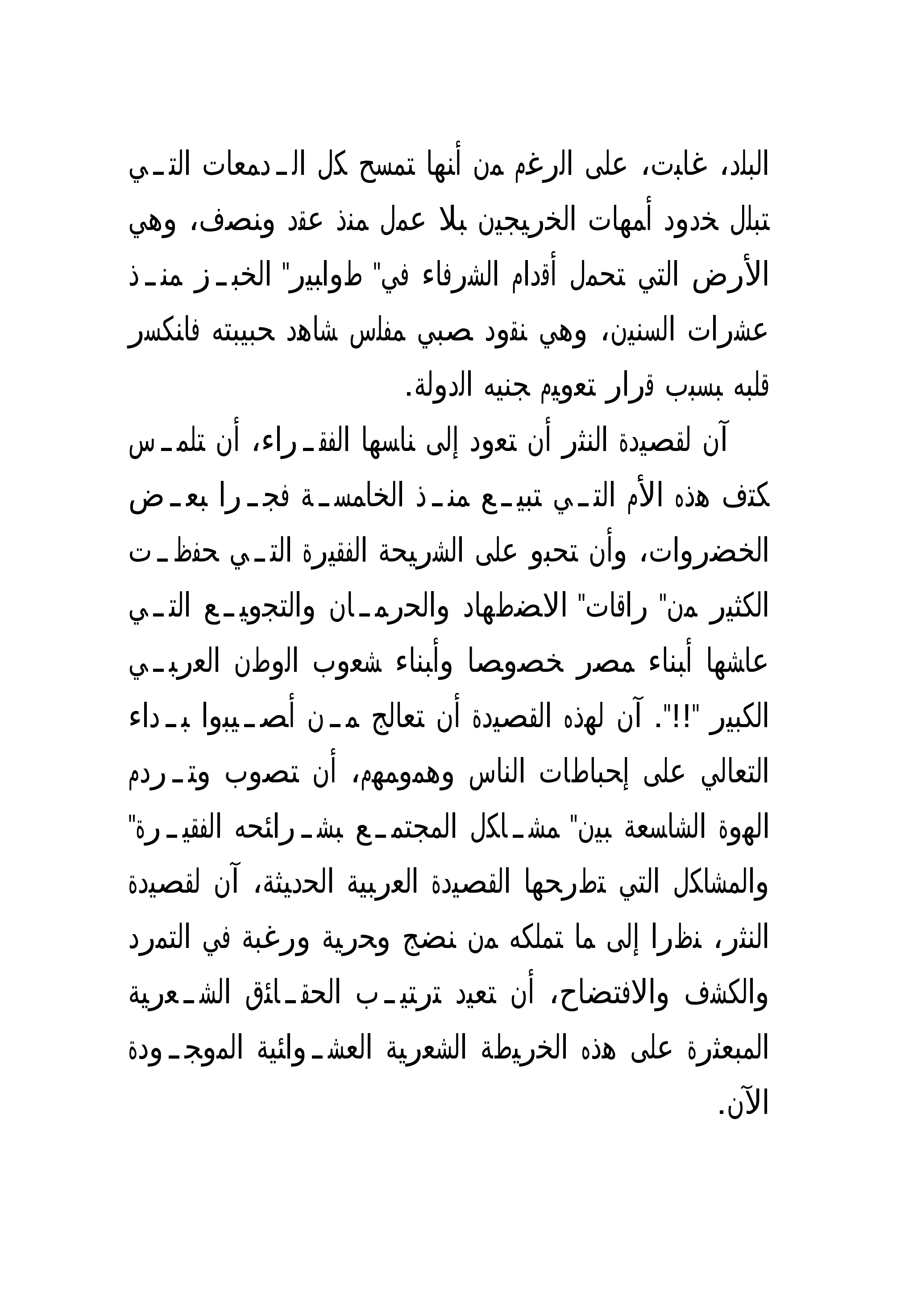
تدوس القصيدة الجديدة على رقاب النقاد من ذوي البـدل الكاملة والأكاذيب الكاملة، وتلصق أقلامهـم المدببـة فـي مؤخراتهم اللزجة، لأنهم أهملوا هذه القصيدة القادمـة مـن مجاعات المستقبل ومن أصلاب مجاعات وردت في حكايات "المقريزي، وابن إياس، والجبرتي" قصيدة تتكفل بإحياء هـذا الضمير الإبداعي، فهي تؤرخ لانهيـار "النخبـة الحاكمـة" و"الناقدة" في زمن تم فيه شراء كل شيء، لقد ضربت قصيدة النثر الشعر العربي الأجوف" قلما على قفاه" وأدخلته معركة المصير، إما أن ينطق بكل جروح هذه المجزرة البشرية وإما أن يصمت، إذا لم يلعب الشـعر دورا فـي هـذه المتاهـة الوجودية فلا مبرر له، ما الحاجة إلى شعر يضال بالإيقـاع أو يعيد استهلاك البلاغة التقليدية.

تألّم رموز الدولة نقادا ومبـدعين وجـامعيين وشـيوخا ومثقفين من أن تنمو قصيدة النثر في مصر والعالم العربـي بهذه السرعة، حسنا، تلك هي المرحلة الأولى، لابد أن يفهـم الشعراء الجدد أن لهم دورا عظيما في المرحلة الثانيـة لأن تحت كل حجر في هذه الدولـة" خصوصـا فـي الأقـاليم والمحافظات" ثمة قصيدة تنادي شاعرا كي يكتبها.

أكتب هذه القصيدة يا صديقي وأقذفها في وجه النقـاد.. هذه النفايات المعلبة بالكذب والمدنسة بالفضيلة، انظر إلـيهم على هذه المقهى الثقافي يتفرسون في فخـذ تلميـذة تكتـب الشعر، انتظر عدة شهور فقط، ستصبح التلميذة شاعرة الفخذ الأعظم في سماء قصيدة عهر الدولة، انظر!! هذا السـوتيان يلقي قصائده الناهدة في معرض القاهرة للكتاب، انتظر عـدة أسابيع وتأمل الفارق. هذا السوتيان يمثل مصر في مؤتمرات الشعر العالمية. النقاد الأقزام يليقون بمؤسسات الدولة.

-٣-

غابت القصيدة العربية زمنا عن الدفاع عن حقوق البشر، وإنسانية المواطن العربي، غيبها لصوص البسمات، الـذين أخفت جيوبهم كل الأموال ونامت أبدانهم على كل حرير هذا



البلاد، غابت، على الرغم من أنها تمسح كل الـ دمعات التـي تبلل خدود أمهات الخريجين بلا عمل منذ عقد ونصف، وهي الأرض التي تحمل أقدام الشرفاء في" طوابير" الخبـز منـذ عشرات السنين، وهي تقود صبي مفلس شاهد حبيبته فانكسر قلبه بسبب قرار تعويم جنيه الدولة.

آن لقصيدة النثر أن تعود إلى ناسها الفقـراء، أن تلمـس كتف هذه الأم التـي تبيـع منـذ الخامسـة فجـرا بعـض الخضروات، وأن تحبو على الشريحة الفقيرة التـي حفظـت الكثير من" راقات" الاضطهاد والحرمـان والتجويـع التـي عاشها أبناء مصر خصوصا وأبناء شعوب الوطن العربـي الكبير "!!". آن لهذه القصيدة أن تعالج مـن أصـيبوا بـداء التعالي على إحباطات الناس وهمومهم، أن تصوب وتـردم الهوة الشاسعة بين" مشـاكل المجتمـع بشـرائحه الفقيـرة" والمشاكل التي تطرحها القصيدة العربية الحديثة، آن لقصيدة النثر، نظرا إلى ما تملكه من نضج وحرية ورغبة في التمرد والكشف والافتضاح، أن تعيد ترتيـب الحقـائق الشـعرية المبعثرة على هذه الخريطة الشعرية العشـوائية الموجـودة الآن.

يكتب الشعراء قصيدة النثر من دون أن يسـألوا أنفسـهم "لماذا"، ومن دون أن تكون إجاباتهم مستندة إلى وعي سياسي أو اجتماعي أو حتى فلسفي، يقولون أشـياء كثيـرة حـول "الجسد" و" الذات" و" الفردانية" وكأنها أشياء معزولـة عـن المحيط الاجتماعي أو مفصولة عن التطورات السياسية التي تغير وجه العالم، وكأن" الجسد" لم يتأثر بمقـولات سياسـية أفرزتها الأنشطة الاستعمارية الأمريكية منذ عقـدين علـى الأقل، يكتب الشعراء قصائد تسهم – بقصد أو بدون قصد – في تضليل الناس عن الهموم الحقيقية، ويخترعون لأنفسـهم هموما شعرية بديلة، يكتبونها في قصائد نثر فيكون الأثر هو البرودة والإفلاس والتضليل، متى فقد الشعر حضوره؟ حين انهارت أشياء كثيرة أهمها رؤية الشـاعر لهمـوم بـلاده. الشعراء يثـورون أولا وبعـدهم الفلاسـفة والسـينمائيون والموسيقيون والجنود والمتعلمون والموظفون والفلاحون..

آن لنا أن نضيء الشعر الجديد بمصابيح همـوم النـاس وأن نرويه بدموعهم، لدينا حيوات بائسة فلنكتبها كـي نمـد الشعر بثمار جديدة، ولنبقى أحياء ولو قليلا، فما قيمة الحيـاة

إذا بقيت أمهاتنا ثكالى وبقينا نحن لا نكتب إلا عن أعضـائنا التناسلية!!

ضاقت الأكاذيب علينا، تماما كما ضاقت التفعيلـة، مـا حاجتي إلى نغمة لأصنع إيقاعا حين أكتب قصيدة عن ظلـم لحق بي في قسم الشرطة أو فـي العمـل أو فـي الراتـب الشهري، أنا بحاجة إلى الحرية كي أفضح رائحـة الرشـوة المنبعثة من مكتب رئيسي على هيئة" بارفان" باريسي، أنـا بحاجة إلى طاقة من الصراحة الكاملة، الإيقاع كـاذب مثـل تصريحات الوزراء، الإيقاع مشاع، لكن الصراحة تخصـني وحدي.

-٤-

ليست قصيدة النثر خازوقا في مؤخرة المسـئولين عـن النشر في مصر(حكوميين أو من القطاع الخاص) فهي تلعب دورا مختلفا في أجسادهم، حين تتحول إلى سكين يشق بطن الواحد منهم فتنزل زجاجات الويسـكي وأكـلات المطـاعم الفاخرة، الأمر ينطبق على الوزير والشاعر ورئيس الهيئـة منهم، أذكركم بمجلة "إبداع" وشاعرهم المعتزل، الذي أهمـل القصيدة الجديدة وشن ضدها حملة ضارية، وأراد أن يقـف

ضد التيار الهادر في الشارع الثقافي العربي، ماذا حـل بـه وبمجلته، أغلقت أبوابها بعد تواطؤ دام ثلاثـة عشـر عامـا تقريبا.

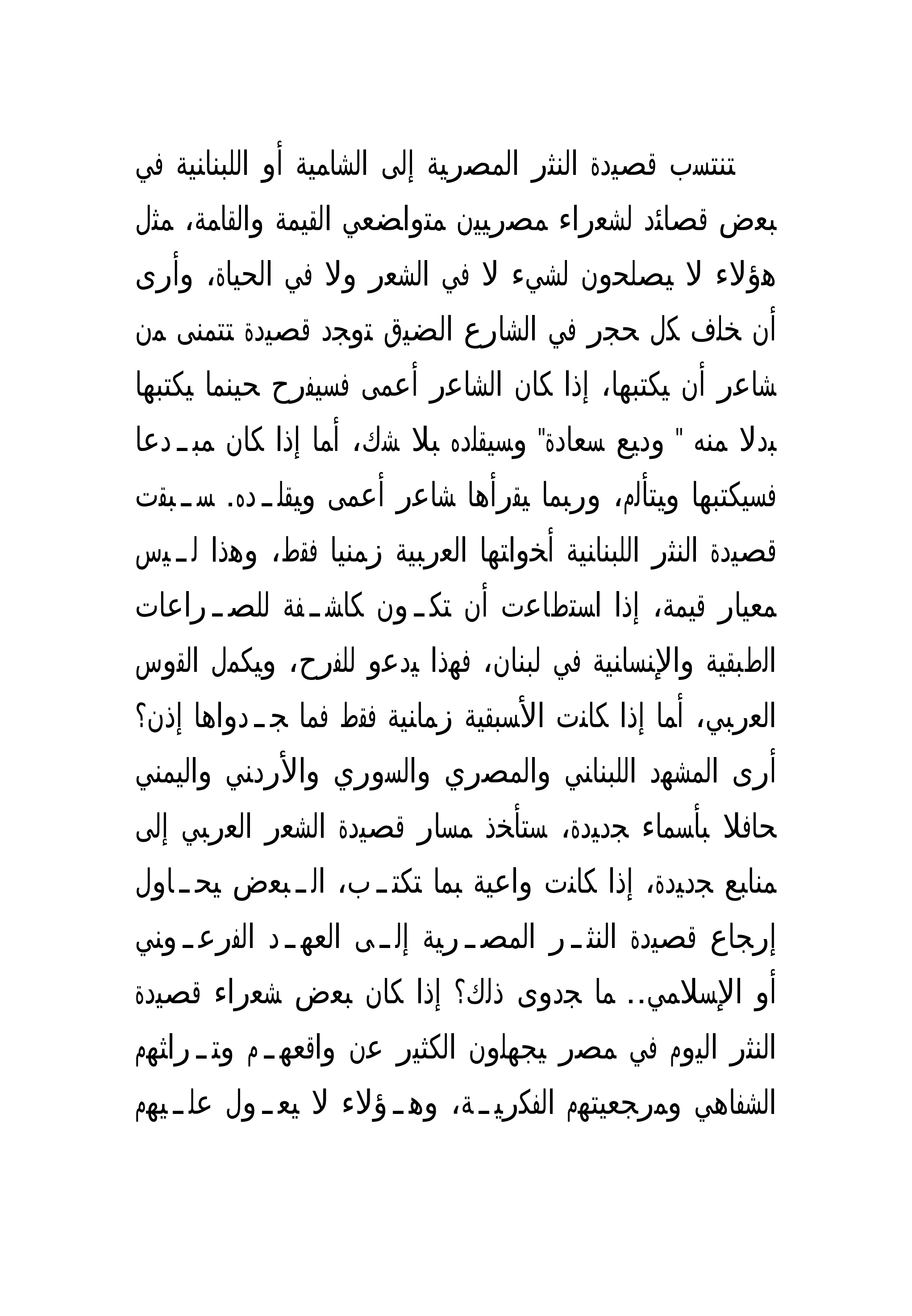
الأمر ينطبق على الجميع، الذين يمثلون" طبقة الحكام".. لقد أصبحت قصيدة النثر سيئة السمعة عند كل رجال الدولة: عصفور، سرحان، فهمي، حسنى، شلبي، حجازي، شهاوي.. وعند تجار الفاكهة وربات البيوت وأصحاب محلات الموبايل ومدرسي اللغة العربية ورؤساء التحرير ورجال الإعلام و.. جميعهم يكرهون قصيدة النثر لأن طبقة الحكـام المسـيطرة علمتهم في إطار سيطرتها على كل وسائل التعليم أن يكونوا جهلاء حتى لو تخرجوا في الجامعات، أو عملـوا معيـدين فيها، أو صاروا أساتذة للأدب العربي.. سـيظلون جهـلاء وتظل قصيدة النثر سكينا يقطع حناجرهم المتآلفة مع السـائد والنمطي والجاهز، تآلفهم مع حناجر" طبقـتهم الاجتماعيـة" ومصالحهم السياسية والاقتصادية، قصـيدة النثـر تـذكرهم – شعريا – بأنهم يسرقون خيرات هذا البلد في بطونهم التي ستنفجر منها زجاجات الويسكى وأكلات المطـاعم الفـاخرة بلمسة سكين.

ذات يوم ستصل القصيدة الجديدة إلى قارئها، وفي كـل العصور واللغات كان هناك من يمنع الفنون عـن التطـور، ورغم ذلك لم يقف فن هكذا بعيدا ومحايدا، دخل المعركة مع التجديد وكسبها في النهاية، وحتـى يحـدث ذلـك لا يملـك الشعراء إلا أن يضيئوا هذا الطريق المظلم، وسيفعلون ذلـك قريبا.

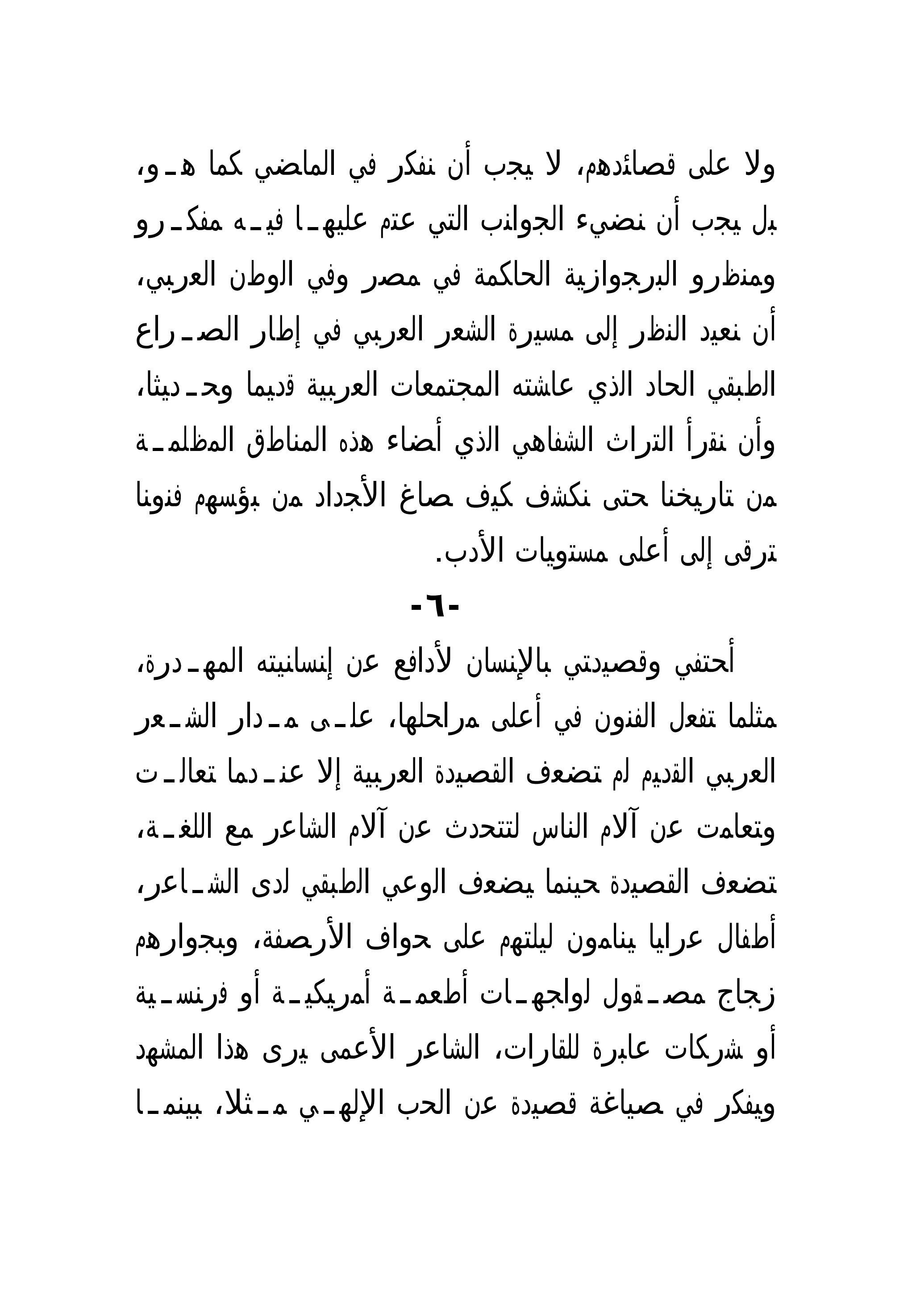
-٥-

القضايا الكبرى.. ما معنى هذه الفرية؟ من الذي يحـدد حجم القضية هذه صغيرة وتلك كبيرة، الإنسان في هزائمـه اليومية أمام محلات بيع الأطعمة الرخيصة "قضية كبـرى"، الموظف أمام رئيسه المختلس" قضية كبرى"، الفتـاة التـي فاجأها" الحيض" لأول مرة وهي تسير في الشـارع" قضـية كبرى". من الذي قال إن" الوطن" – هـذا المفهـوم العـام والمضلل- هو وحده القضية الكبرى، الوطن يضـم الحـاكم والمحكوم المشبع والجائع، النائم علـى الرصـيف عاريـا وراكب السيارات الفارهة متخما، فأي جزء من الوطن هـو "القضية الكبرى"؟

المفاهيم المضللة تليق بالنقاد الأقزام.



تنتسب قصيدة النثر المصرية إلى الشامية أو اللبنانية في بعض قصائد لشعراء مصريين متواضعي القيمة والقامة، مثل هؤلاء لا يصلحون لشيء لا في الشعر ولا في الحياة، وأرى أن خلف كل حجر في الشارع الضيق توجد قصيدة تتمنى من شاعر أن يكتبها، إذا كان الشاعر أعمى فسيفرح حينما يكتبها بدلا منه " وديع سعادة" وسيقلده بلا شك، أما إذا كان مبـدعا فسيكتبها ويتألم، وربما يقرأها شاعر أعمى ويقلـده. سـبقت قصيدة النثر اللبنانية أخواتها العربية زمنيا فقط، وهذا لـيس معيار قيمة، إذا استطاعت أن تكـون كاشـفة للصـراعات الطبقية والإنسانية في لبنان، فهذا يدعو للفرح، ويكمل القوس العربي، أما إذا كانت الأسبقية زمانية فقط فما جـدواها إذن؟ أرى المشهد اللبناني والمصري والسوري والأردني واليمني حافلا بأسماء جديدة، ستأخذ مسار قصيدة الشعر العربي إلى منابع جديدة، إذا كانت واعية بما تكتـب، الـبعض يحـاول إرجاع قصيدة النثـر المصـرية إلـى العهـد الفرعـوني أو الإسلامي.. ما جدوى ذلك؟ إذا كان بعض شعراء قصيدة النثر اليوم في مصر يجهلون الكثير عن واقعهـم وتـراثهم الشفاهي ومرجعيتهم الفكريـة، وهـؤلاء لا يعـول علـيهم



ولا على قصائدهم، لا يجب أن نفكر في الماضي كما هـو، بل يجب أن نضيء الجوانب التي عتم عليهـا فيـه مفكـرو ومنظرو البرجوازية الحاكمة في مصر وفي الوطن العربي، أن نعيد النظر إلى مسيرة الشعر العربي في إطار الصـراع الطبقي الحاد الذي عاشته المجتمعات العربية قديما وحـديثا، وأن نقرأ التراث الشفاهي الذي أضاء هذه المناطق المظلمـة من تاريخنا حتى نكشف كيف صاغ الأجداد من بؤسهم فنونا ترقى إلى أعلى مستويات الأدب.

-٦-

أحتفي وقصيدتي بالإنسان لأدافع عن إنسانيته المهـدرة، مثلما تفعل الفنون في أعلى مراحلها، علـى مـدار الشـعر العربي القديم لم تضعف القصيدة العربية إلا عنـدما تعالـت وتعامت عن آلام الناس لتتحدث عن آلام الشاعر مع اللغـة، تضعف القصيدة حينما يضعف الوعي الطبقي لدى الشـاعر، أطفال عرايا ينامون ليلتهم على حواف الأرصفة، وبجوارهم زجاج مصـقول لواجهـات أطعمـة أمريكيـة أو فرنسـية أو شركات عابرة للقارات، الشاعر الأعمى يرى هذا المشهد ويفكر في صياغة قصيدة عن الحب الإلهـي مـثلا، بينمـا

الشاعر الرائي سيفكر بطريقة مختلفة تماما، سـيرى علـى الأقل أن علاقة ما بين هؤلاء العرايا ونظافة واجهـة هـذه الشركات في كل دول العالم.

عمل الشاعر الجديد إذن لا يشبه عمـل" الجـواهرجي" المنمق والمتكلف، يشبه عمل" الفلاح" الذي يرعـى أرضـه ويتقن ضربه" الفأس" ويهيئ المياه للمحصول الجديد، يعرف المواسم ويلقي بدقة بذوره، حتى تتساوى الأرض بالزرع في رؤية كلية شاملة، وحين يروى أرضه يكون كل شيء فـي مكانه السليم ويخرج الجمال في نمو سريع ودقيق للنباتـات، هكذا الشاعر لا يهتم باللغة بل يتقنهـا، لا يهـتم بتجـارب الآخرين بل يعرفها ويتشرب خبرتهم وهكذا، إذا ظن الفـلاح أن محصوله يجب أن يخرج جميلا كلوحة فنية، لن يـزرع أبدا، هو يتقن أولا ثم يزرع فيخرج المحصول جميلا ووفيرا.

الأشعار المضيئة بين كل ما تركه" المتنبي" هـي التـي تقول بلغة بسيطة معنى عميقا – مثل الفلاح تماما- فهو قدم إنتاجية المحصول على الجمال، أما أحمد شـوقي" الأميـر" فقصيدته هي التجسيد الأمثل للتكلف والاهتمام البالغ بجمـال

دون محصول، ودون إنتاجية، كلنا يعرف كم نمـق أحمـد شوقي من قصائد، لم يبق منها إلا أقل القليل.

-٧-

لا أميل إلى البلاغة القديمة بمفاهيمها السائدة في القصيدة السابقة على قصيدة النثر، أريد لغة تحدد المعـاني وتطـرق الفكرة، ما عرفناه في سنوات التلمـذة عـن زواج البلاغـة بالشعر زواجا كاثوليكيا كان أكذوبة، أريد لغة تحمل ما لدي من صور ومشاهد، لا تفتعل البلاغة القديمـة، وإن جـاءت فلأنها محمولة على تراثي الذي أسعى إلى نقضه وتغييـره، لأضيف إلى الشعر. ظل البلاغيون قضاة شعراء العصـور السابقة، لقد حاسبوهم على أصواتهم" المهموسة" و"الصاخبة"، وراجعوهم مراجعات قاسية،" ركبة" استعارة هنا، و" عظمة" كناية هناك، وعرضوهم على جهاز كشف الكذب البلاغـي، الأمر الذي أبقى القصيدة العربية أكثر من ألف عـام م دون تطور، لقد باعت نفسها قرونا لهؤلاء القضاة المغفلين، أريـد لغة أسأل بها عما أريد، لا حاجة بي إلى بلاغة عجوز.

البعض يظن أن" الكوميديا السوداء" هي قلـب القصـيدة الجديدة عفوا هذا كلام عيال على الشعر، الفن ينقـل خبـرة

حياتية وخبرة جمالية، الحياة الآن هي قصيدة نثر ضـخمة، تحمل اتساقا داخليا فيما تبدو للعالم كأنها تفتقر إلى الأسـس والقوانين والبراهين العقلانية، هكذا تكـون قصـيدة النثـر، لا تغامر بحيويتها مع شـبكة "التنـافرات التركيبيـة" التـي أفرزتها قصيدة شعراء السبعينيات باستعارة مفردات ناقـدهم محمد عبد المطلب، ولا أريد أن يغيب" الربط الدلالي" بـين سطور قصائدي ليحـل محلـه "التـداعي النفسـي" أحيانـا والصوتي أحيانا أخرى، وهو ما فعله شعراء السبعينيات، لقد كانوا يلعبون مع اللغة حين فعلوا ذلـك، كانـت أصـابعهم الشعرية تعاني البطالة فقرروا – مثل الأطفال- أن يطيـروا طائرة ورقية من البلاغة التقليدية، وجلسوا ليتـأملوا وبعـد ساعات عادوا بها إلى منازلهم، انتهـت الفرجـة الشـعرية ليتبرأوا منها جميعا الآن.

ما أريده للقصيدة العربية هو أن تجري علـى قـدمين: خبرة الحياة وخبرة الجمال، المشـروطتين بإيقـاع اللحظـة التاريخية الراهنة، لا أريد مصيرا للقصيدة العربية أفضل مما حدث لطفلي، في الأول بدآ يحبوان، ثم تساندا علـى الكتـل المرتفعة ليتعلما المشي، والآن يجريـان بسـرعة.. ظلـت

القصيدة العربية تحبو على قدمين مـن البلاغـة التقليديـة "والوعي الجزئي" بالعالم، وحين تطورت البنى الاجتماعيـة والفكرية أوائل القرن العشرين، أعاد شعراء الإحياء" الحبـو" إلى سيرته الأولى، كانوا رجعيين بما يكفي لاستنساخ قصيدة عربية قديمة، لكن ما لبث الإحيائيون أن مـاتوا واسـتطاع رواد قصيدة الشعر الحر أن يتساندوا على الجدران المرتفعة للتفعيلة، وهنا تراجعت البلاغة التقليدية نسبيا، وتطور الوعي بالعالم، استمر ذلك لعدة عقود، وبنمو عضلات الساقين بـدأ الشعراء يمشون بثقة على الأرض.

تخلى الشعراء عن قيودهم حين اكتشـفوا أن بإمكـانهم الجري وأظهروا الوعي الكلي بالعالم(عـدة نقـلات كميـة تصنع نقلة نوعية) بحسب كارل ماركس.

"المفارقة" أهم إنجازات قصيدة النثر التي لابد سـتتطور، مثل كل الفنون إلى شكلها الأرقى، نحن لا نريد شكلا واحدا ولا قاموسا شعريا مكررا ولا نريد أن نؤبـد الشـعر فـي "قصيدة النثر".. ننتظر أن تتطور هذه المجتمعـات العربيـة لتتطور معها القصيدة والفنون جميعا، وحتى يحـدث ذلـك



سنظل نحفر هذه الأرض بحثا عن قصيدة أهملتهـا قـرون القهر والاضطهاد والإفقار.. سنظل.

محمود خير اللّه

شاعر. صحفي بمجلة الإذاعة والتلفزيون.

له:

- فانتازيا الرجولة – سلسلة إبداعات – الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٨ – شعر.
- لعنة سقطت من النافذة.
- ظل شجرة في المقابر.